إيميل المؤلف: samirsma@gmail.com
يمنع طباعة أو تصوير هذه المطبوعة أو أجزاء منها, أو حفظها أو نسخها على الوسائط الإلكترونية من غير موافقة مسبقة من المؤلف.

العنوان: الخنفس (رواية)
المؤلف: سمير محمد
المقاس: 14 * 20 سم
الطبعة الأولى: 2024
@ حقوق الطبع محفوظة

سمير محمد

رواية

الخنفس

حمولة الشيطان

يقول الأديب البريطاني "برنارد شو":

ــ هناك كارثتان في الوجود, الأولى عندما لا تتحق رغباتنا, والثانية عندما تتحقق

أنا الكارثة الثالثة, فلا أشبع ولا أرى سوى رغباتي حتى تتحقق وأسعد بنتائجها, اسمي "حُسين", وهو اسم شائع في منطقتي إلى جانب بعض الأسماء الأخرى, كما إنه مرادف لكلمة الحُسن والجمال في لهجتنا. منذ طفولتي أدركت بأني أملك روحا شيطانية في داخلي, ربما تكون طينتي مخلوطة بماء الشيطان وعصارة الجحيم, لكني على كل حال كنت بارعا

في ممارسة حيلي وشيطانيتي المفضلة ضد أقاربي بالدرجة الأولى, خصوصا أخي الأكبر"حسن", وليس من السهل أن يتحدث الرجل عن نفسه بهذا الشكل حتى في ذروة المصارحة الذاتية، لكنكم ستعرفون سبب حديثي هذا فيما بعد، كما أنه ليس من السهل أن أسرد ذكرياتي بهذا الشكل القميء, ليس بسبب سوداويتها فأنا سعيد بكل ما فعلته في حياتي حتى وإن كانت أفعالا شيطانية, لأن هذا هو قدري الذي كتبه الله فنحن نعيش في ماضٍ كتب منذ الأزل أو هكذا أبرر لنفسي كما وسوس لي أبي إبليس ذات مرة, فوعيت ما قاله ككل كلامه.

ما زلت أتذكر بشكل جيد لقائي الأول به حين كنت أدرس في "قعطبة", في المدرسة التي خصصها إمام "صنعاء" لتعليم الأطفال في الجنوب خصيصا وكان من ضمنهم مئات الطلاب من أبناء منطقتي.

في أحد الصباحات الباردة كان علينا أن نتجمع ونذهب إلى الخلاء بين الأشجار, فلا حمامات حينها, وبينما كنت أنتظر أخي "حسن" الذي كان يرافقني ــ أو بالأصح كنت أرافقه وأتبعه كما أنا دوما ــ على مرمى حجر من مبنى المدرسة, في الطريق إلى شعب مليء بالأشجار خصصته إدارة المدرسة الإمامية كمرحاض عام, وبينما كنت أنتظر أخي الذي رأيته قادما نحوي برز رجل من العدم وكنت قد أبصرته سابقا يسير بعيدا عند قدومي, لكني تجاهلته حينها, اقترب مني بشكل مفاجيء وقام بدفعي بكتفه بقوة متوسطة فاختل توازني, وعندما التفت لألقي نظرة غاضبة عليه, رأيته يحدق بي مباشرة.. في عينيّ تماما, لم أشعر بالبرد في حياتي كلها مثل تلك اللحظات, حيث كانت عيناه تبدوان كرسمة بدائية لا يوجد بها أي لمعان مطلقا, كأن الضوء قد جف منهما, ولا يمكن لصاحب تلك العينين أن يكون مبصرا. لم أستطع تحديد عمره, إذ كان يبدو لي

حينا كمراهق صغير وحينا كرجل في الثلاثين من عمره. ابتسم في وجهي وكأننا صديقان نتبادل الأسرار والحكايات والفوضى, لا أدري ما الذي كان يخطر في بالي في تلك اللحظات فلم أكن مهتما بدروس القرآن التي كانوا يحفظوننا إياها إجباريا عبر أعواد الخيزران اللاسعة فكرهت تلك الدروس وبالتالي لم يخطر على بالي أن أقرأ بعضا من الآيات التي أحفظها كما يفعل الصبية عند الخوف, وقتها عرفت أنه شخص غير عادي, كان يرتدي ملابس سوداء من قميص وإزار من نفس القماش القاتم وهو ماكان غريبا ومختلفا عن ملابس الناس في عموم المناطق, كما أنه كان يحمل حقيبة بدائية من جلد أسود غير معروف بالنسبة لي وكانت الحقيبة ممتلئة ومنفوخة بشكل غريب. مسح بيده على رأسي وقال لي مبتسما:

ــ أنت ولدي البشري.. قم بعمل جيد اليوم

بقيت صامتا مندهشا وأنا أراه يبتعد باتجاه الشعب ــ وأنا أسمع صوت نباح كلب غريب لم يفارقني طوال حياتي ــ مع اقتراب أخي الذي سرت إلى جواره وأنا أفكر فيما حدث بعينين حائرتين وجلد مصاب بالقشعريرة, وأنا أتذكر نظراته بتلك العينين الميتتين الباهتتن اللتين لاتعكسان الضوء, هذا الذي غزا حدودي واخترق حاجزي وثقب حيزي الكوني, لكني أدركت بأنه شرير للغاية, وبأنه الشيطان.. أبي.. فكان هذا أول لقاء بيننا, وعند العودة من الخلاء قمت بإخفاء كيس الكدم الخاص بي الذي كانت إدارة المدرسة تمنحه لنا في الصباح كمصروف يومي للأكل, وعلى كل منا أن يتدبر أمر إخفائه حماية له من أيدي الطلبة العابثين, وإلا بقي اليوم بأكمله بلا طعام بالإضافة إلى وجبة ثقيلة من خيزرانة أحد المعلمين, كما أني أخذت كيس أخي الذي خبأه في طيات فراشه, وألقيت به بعيدا عبر

النافذة الضيقة خلف مبنى المدرسة, فحصل بالتالي على عقاب قاسٍ عبر عشرين جلدة على ظهره ومؤخرته, ظل يصيح منها طوال النهار والليل, ولأني أنام بجواره ــ مما حرمني من النوم بالإضافة لتقاسمي معه نصيبي من الكدم الست ــ فكنت متضررا من هذا المقلب الشيطاني لكني كنت سعيدا لرؤية أخي وهو يتعذب من الضرب.

من الصعب استرجاع الذكريات حتى السعيدة منها, لأنها تصبح عبئا ثقيلا في كل مرة نعود إليها، وقد قرأت مرة في كتاب وجدته مع أحد الرفاق مقولة لجبران خليل جبران يقول فيها:

ــ احترس من ذكرياتك فالوجع يزورك مرة واحدة, ولكنك لا تتوقف عن زيارته

كان أخي قد أنجب طفله الثالث خلال خمس سنوات, بينما أنا المميز والأذكى لم أنجب سوى ابنة واحدة بعد ثلاث سنوات من الزواج, لتأتي ابنتي "جميلة" قبيحة جدا بعكس اسمها, بينما كان أطفال أخي يتمتعون بالوسامة ونقاء البشرة, وكانت هذه الشرارة الأولى التي أشعلت ماء الشيطان في داخلي ضد أخي "حسن" الذي كان هو من تلقى القذائف الأولى والمستمرة من حممى وألاعيبي الشيطانية, ثم أولاده من بعده. فكنت أسمع الشيطان ــ يرافقه صوت نباح الكلب الغريب ــ وهو يوسوس لي بعبارات مثل:

ــ أخوك أذكى منك، وأصدق منك

ــ أخوك لا يحب النفاق وكثرة الجدل ولا يتدخل فيما لا يعنيه

ـ أخوك يجيد اختيار أصدقائه وشلته

ـ زوجة أخيك جميلة ومخلصة ودائما تتحدث عن أخيك بشكل جيد وتتحمل من أجله كل شيء

كانت العبارة الأخيرة مخيفة بالنسبة وكنت أسمعها مع باقي العبارات بشكل واضح ومتكرر وليست خيالات، ولا أدري إن كانت هذه طبيعة الوسوسة الشيطانية بحيث يسمعه كل الناس، أم أنها معاملة خاصة لي كتلميذ نجيب، فكان يستمر بالوسوسة بلا انقطاع حتى أصبح صوته مزعجا لي لكني كنت أخشى الاعتراف بهذا.

ـ أبناء أخيك أذكياء، أبناء أخيك وسيمون

ـ أخوك .. أخوك .. أخوك ..

بعد أن أنجب طفله الأخير قرر أخي الانتقال إلى المدينة بشكل نهائي مع أسرته, وهو الشيء الذي لم تتقبله زوجتي ليلى التي كانت نسخة مني في الشكل والروح الشيطانية, وربما كان هذا هو سبب إنجابنا لأطفال قبيحين.

بعد مرور بضعة أشهر سعيت خلالها إلى تحريض والدتي ضد أخي الذي تركها ونزل إلى المدينة استجابة لطلبات زوجته, بينما أنا وزوجتي بقينا نخدمها بكل حب, وفي الحقيقة لم أكن مهتما بوالدتي التي كانت تحبني وتدللني منذ صغري, ولكني نظرت إلى الأمر فوجدت أن والدتي لن تتقبل رغبتي في النزول إلى المدينة أنا الآخر طالما أنه لن يتبقى معها أحد

لخدمتها في الطين والبيت, لذا فقد كنت ناقما على أخي لأنه جعلني في ورطة أمامها. فأوعزت لزوجتي أن تسرف في تدليل والدتي وإرضائها بكل الطرق, وفي الحقيقة قامت هي بالأمر على أكمل وجه ليس فقط مع والدتي بل مع إخوتي الآخرين الذين كانوا صغارا آنذاك, وبعد عدة أشهر جلست إلى والدتي وأخبرتها بأن أخي كان مخطئا في أخذ زوجته إلى المدينة وأنه لن يسمح بتفريق الأسرة وتشتيتها, لذلك فقد أخبرتها بأني سوف أنزل إلى المدينة لإقناع أخي وزوجته بالعودة, وعندما وجدت القبول من والدتي أخبرتها بأني لن أنجح في هذا المسعى دون زوجتي التي ستقوم بإقناع زوجة أخي بذلك بأسلوبها.

بعد عدة أيام وافقت أمي بمساعدة من زوجتي التي استمرت في تدليلها لوالدتي وخدمتها, والتلميح لها ببعض الأحاديث والقصص عن الأسرة والتكاتف, وعن بعض نساء القرية اللاتي استطعن أن يجمعن أبنائها

ونسائهم حولهن دون مفارقتهن, وفي حقيقة الأمر كنت مستعدا للسفر إذ قمت بحجز مقعد لي في شاحنة "عنترناش" كما يسميها الأهالي تحريفا لكلمة "إنترناشيونال" فلا يصل سواها إلى بلادنا الجبلية شديدة الوعورة, لكني كنت محظوظا في هذا الصدد على العكس من أسرة أخي التي أنزلها والدي على ظهر حراثة متهالكة, وهذا جعلني مزهوا وفخورا بنفسي.

ولحسن الحظ فالمدينة ــ لي ــ ليست غريبة على الإطلاق, فأنا أعتبر نفسي من أهلها الخلص, إذ كنا أنا وأخي نعمل في ورشة العم "صالح" منذ سنوات طويلة.. مذ أن كنت طفلا, والعم "صالح" من القرية وصديق لوالدي. عاصرنا خلالها وهج الدعوات التحررية وشعارات الثورة, وشاهدت جيراننا البريطانيين وهم يسكنون بكثرة في نفس العمارة والعمارات المجاورة. كانوا يخشون الخروج إلى الشوارع اتقاءا لغضبة الشعب, فكنت أتسلل من الورشة حين انشغال "العم صالح" بالعمل وأصعد

إلى الشقق لتلبية احتياجات البريطانيين من البقالة وغيرها لقاء أجر مغرٍ, كنت أجمع أكثر من راتبي من الورشة في أسبوع واحد, وكان البريطانيون كريمين معي بشكل بالغ, وطالما أدخلوني منازلهم وتناولت الطعام معهم ومع أطفالهم لحاجتهم لي, وعندما كنت أنتهي من خدمتهم أعود إلى الورشة وأنا أردد الأناشيد الثورية التي كانت رائجة وأكتب على جدار الورشة عبارات الثورة الحماسية التي يرددها الجميع, وقد شاهدتني السيدة "مارجريت" من العمارة المجاورة ذات يوم وأنا أرسم علم الثورة مع عبارة ثورية حماسية وشعار "جبهة التحرير" بالأحرف الإنجليزية "F.L.O.S.Y" , لكني أقنعتها أن هدفي هو التمويه وخداع المتطفلين والثوار حتى لا يشكون بي من أجل خدمة أسيادي البريطانيين وسادة الأرض, ويبدو أنها اقتنعت بسهولة بما أني ألبي احتياجاتهم وهم يلبون جشعي.

بسبب مهارة "حسن" أخي في عمل الورشة وتصليح السيارات قرر العم "صالح" أن يفتتح ورشة جديدة في شارع جديد, وأن يتولى أخي إدارتها بينما أنا مستمر كصبي في الورشة الرئيسية, وقد كان هذا السبب الرئيسي الذي جعل أخي يقرر الاستقرار في المدينة بينما أنا كنت أقضي أربعة أشهر في المدينة وشهرا في القرية بلا مرتب, لذا قررت بعد أن نقل "حسن" أسرته إلى المدينة أن أركز في عملي وأن أطور من نفسي حتى أتفوق على أخي.

فوجيء أخي بنزولنا جميعا أنا وزوجتي وطفلتي, فأنا على كل حال كنت أقيم في منزله ولم يكن يبخل علي بأي شيء, لذا فإنه بطبعية الحال لم يكن معترضا بل مرحبا, وكما تقتضي العادات والتقاليد فقد منحني غرفة في المنزل وأن نتقاسم معا المنزل الذي سأعيش به بضع سنوات لاحقا..

منفردا بعد أن ضايقته وأخرجته منه. أصبحت سعيدا باستقراري مع زوجتي في المدينة وفي منزل كبير كهذا حتى وإن كان في حي شعبي لأني لم أكن أتوقع هذا براتبي الصغير الذي أستلمه من العم "صالح", لذا فقد كان أول قرار لي هو أن أبحث عن عمل آخر.. عمل جديد, غير مبني على ذكريات الورشة وانطباعات العم وتفوق أخي, عمل جديد في مكان جديد لا يعرفني أحد به.

وقد قررت أن تكون الورشة نفسها هي بداية بحثي عن العمل, من خلال الاهتمام بعملي الذي أدركت أني لن أكون بارعا به على الأقل مثل أخي, ثم من خلال جعل العم راضيا عني, وأخيرا من خلال البحث عن شخص مناسب لكي ألعب معه اللعبة التالية.

رحل البريطانيون وشاهدت الثوار يمسحون أعلامها وصور الملكة وزوجها, ويغيرون أسماء الشوارع إلى أسماء الشهداء من الثوار وبعضهم لم يكونوا ثوارا أصلا في الحقيقة. رأيتهم يستولون على منازل البريطانيين الذين رحلوا علنا على الأقل, كما شاهدت اختلاف الثوار على تقاسم الكعكة العدنية مع سلطنات ومشيخات أصبحت تحت قبضتهم, ليهرب الطرف المنهزم إلى شمال الوطن ودول مجاورة وبعيدة, وشاهدت المنتصرين وهم يمسحون شعارات المنهزم وأعلامهم وصور قادتهم ويستولون على منازلهم. ليبدأ عصر جديد ليس فيه أي جديد, هو استهلاك وتدوير لما هو موجود. قصر السلطان يصبح كلية, والكنيسة تصبح مبنى للبحث الجنائي, والمدرسة اليهودية تصبح إدارة للضرائب,

والمبنى الذي يضم شققا يتقاسمه المغتصبون الجدد, وفي كل إعادة تدوير تمحى كل الذكريات والإشارات السابقة.

فيما بعد, قال وزير الدفاع "علي عنتر" بلهجته القروية, وهو أحد قيادات الدولة الكبيرة التي لعبت دورا كبيرا في رسم الفشل السياسي:

ــ مشكلتنا أن كل من رمى إنجليزيا بحجر, يريد اليوم أن يصبح مسؤولا كبيرا

كانت "عدن" فيما بعد منتصف الستينيات تموج بالأحداث والأفكاروالتحولات, بما يوحي أن القبضة السلطوية على البلاد ستكون قوية جدا ومؤلمة, على عكس ماكنا عاصرناه قبل عشر سنوات في آخر سنوات الحكم البريطاني, حيث الرفاهية والانفتاح وتوهج سكان المدينة

وكوزموبوليتانيتها التي تنتفح على كل المناطق والألوان والأديان, وكما يقول المثل الصيني:

ــ إذا فني الطير تخزن السهام وإذا مات الأرنب يطرد الكلب

لذا فقد أدركت مبكرا أن وسيلتي المثلى هي الاقتراب من السلطة, يكفيني شخص واحد من سكان المنطقة العليا التي نسميها السلطة, حيث المنطقة الوردية للأحلام والحب والمال والشهوة, فلم أكن شغوفا بالسلطة والوظيفة, أنا ابن الريف الحر قد أكون صبيا أو عاملا بسيطا في مهنة حقيرة إلا أني لا أستسيغ الوظيفة وبدوام لا يكفي حتى لاستئجار غرفة صغيرة, قد أقطع الطريق وأنهب لكني لن أعمل بوظيفة, وربما لهذا يكون أبناء المدينة هم الأقل فسادا في وظائفهم التي يتقبلونها وتشربوا ثقافتها منذ أجيال.

"عدن" في تلك الفترة قد وصلت إلى أقصى مداها من التطور والازدهار ليس فقط على مستوى المدينة العمراني ولكن ثقافيا ومعرفيا. كانت نسخة مصغرة من القاهرة في كل شيء, أنغام "أحمد بن أحمد قاسم" التي تشبع فيها من روح "مصر", وألحان "محمد عبده زيدي" الرائقة, وعدنية أغاني "خليل محمد خليل", تنهال على مسامعي من المنازل ومن السيارات التي بدأ استخدام الكاسيت فيها منذ سنوات قليلة, حيث أصبحنا نقوم بتركيب أجهزة تشغيل الكاسيت للسيارات القديمة في الورشة, وهو ماكنت بارعا به, وتعرفت من خلال هذا على أطياف واسعة من الشباب العدني قاموا بعمل دعاية جيدة لي منذ بداية ظهور الأجهزة, وليس من اليوم, وقد انسجمت كثيرا مع شباب المدينة وأصبحت مهتما بشكلي وملابسي في ذروة الخروج عن تقاليد السيتينات الملتزمة. قمت بشراء الكثير من بنطلونات "شارليستون" مع أحذية صقيلة مدببة بكعب مرتفع,

وأقمصة ضيقة زاهية بياقات كبيرة تصل أطرافها إلى مادون الصدر, واهتمامي بتسريحة شعر كبيرة إلى أقصى حد يمكنني به تطويل شعري بما تقتضي به تقاليد الموضة التي لم نكن نعرف كيف تنتشر وتصل إلينا وإلى غيرنا وتصبح سلوكا واجبا, حتى أصبح الجميع يناديني باسم "الخُنفُس". تشبها بأعضاء فرقة البيتيلز التي تعني الخنافس والتي كانت قد انتهت قبل سنوات قليلة كفرقة بعد أن اعتبرت مثالا على ذلك العصرالجامح, وفي الحقيقة لم أكن الوحيد الذي كان مهتما بتسريحة الشعر بل كانت هي الموضة السائدة لدى الجميع وكذلك في نوعية الملابس, لكني كنت مهتما خارج العمل باختيارالأزياء البراقة وسط أقاربنا القرويين المفتقدين للذوق أو الرغبة في الاهتمام بالملابس على توفيرأشياء أهم وأنفع لهم, أو من شباب المدينة محدودي الدخل, لذلك أصبح اللقب اسما ثابتا لي ساعدني في هذا شعري الكث والخشن الذي

كنت أبذل جهدا كبيرا في تسريحه ودهنه بالزيوت مما ساهم بتكريس اللقب وانتشاره بين الناس.

في البداية اندمجت سريعا مع أجواء الشباب العدنيين, وكنت أحضر معهم مناسباتهم وحفلات الزفاف "المخادر" والمناسبات التي كان يحضرها كوكبة من فناني عدن الكبار, حيث كانت أغانيهم تملأ الأجواء في كل مكان.

كانت الأجواء خيالية وتسحبني إلى أعماقها بكل قوة, انبهرت بالانفتاح والطيبة التي كانت تغمر أبناء عدن وحبهم لكل من يعيش معهم, دخلت بيوتهم وانغمست بانفتاحهم على عكس بيئتي القروية المنعزلة, وتعبقت ببخور عدن الفواح الذي ينتشر بين حاراتها في ليالي عدن الصيفية الساحرة التي كانت تزيد سحرا مع أصوات الأمواج الوادعة, هذا البحر الذي يكون هادرا وأمواجه تخيف أرباب السفن, لكنه يصل هادئا ووديعا

عند أقدام عدن التي تغسل كل تعبها ومصائبها بزبده الحار الملتهب, كما تغتسل عشيقة عارية عند أقدام معشوقها, وكما تذوقت حلواها اللذيذة التي لم يكن يتفوق عليها إلا بناتها في دلالهن وثقتهن بأنفسهن وأحاديثهن الساحرة التي يقف أمامها القروي البسيط منذهلا مسحورا.

لقد أحببت أن أكون عدنيا, أتقن لهجتها قدر الإمكان وأتمسك بتقاليدها الممعنة في المدنية وحب الحياة والتحضر, وكل هذا لم يكن ينسيني هدفي في الصعود نحو الثراء والقبض على منبع المال بيدي, بينما أتماهي مع الأجواء العدنية وأندمج في ثقافتها وتنوعها أدركت بالتدريج أن السلطة لم تعد في يد أبناء عدن, أو حتى القادمين فرادى وجماعات الذين سرعان مايصبحون من أبنائها بعد أشهر بسبب طبيعة "عدن"

المنفتحة والحاضنة لكل غريب, بل رأيت أرتالا من القرويين مدججين بالسلاح والأصوات العالية والسلطة الكاملة بمجرد وضع أقدامهم في شوارع عدن, لذا فقد أدركت مبكرا أن عدن لم تعد لأبناء عدن بل لمن يملك القبيلة والسلاح والشهوة.. شهوة كل شيء. وهكذا رحل الرئيس الأول بانقلاب رفاقه عليه وشاهدت المنتصرين وهم يمحون صوره وأخباره ويدمرون أرشيفه وكل ما يشير إليه وإلى دوره النضالي والتحرري, ليصنعوا تاريخا جديدا للقادمين الجدد علينا أن نحفظه مع صورهم وقصصهم.

طالما دخلت في نقاشات حادة مع أخي حول شلتي و أصدقائي, فقد كان كما هو حال القرويين يرون في أبناء المدينة مثالا على التسيب والضياع وأنهم لا يصلحون للعمل أيا كان هذا العمل, ناهيك عن جلسات القات والمداعة التي تنفث بدخان فحمها في كبد أخي, ذات مرة وجدني في

البيت قبل أن يدخل إلى حجرته متعبا من عمله فوجدها فرصة سانحة ليفاتحني في موضوع أصدقاء المدينة الذين أعرفهم كعادته فقال:

ــ يجب أن تحافظ على سمعتك وسمعتنا

ــ ماهو الخلل من وجهة نظرك؟

ــ الجميع يتحدث عن مسايرتك لأبناء المدينة

ــ ما الضير في ذلك؟

ــ أبناء المدينة منعمون وليسوا مثلنا ننحت في الصخر, كما أنهم يحبون التنزه كثيرا ولبس الأزياء المبهرجة وتنعيم بشرتهم

ــ هذه الجمل أو الكيليشيهات الثابتة التي يطلقها القروي على أبناء المدينة, أعرفها كلها وأعرف ما سوف تقوله لاحقا

ــ انظر إلى نفسك وكيف أصبحت تلبس وإلى هذه "الخنفسة"

كان يشير إلي بأطراف أصابعه مجتمعة كدليل على الإهانة, فقلت له متجاهلا هذا:

ــ أبناء عدن أهل حضارة واستطاعوا بناء مدينة عظيمة.. هؤلاء الذين تحتقرهم

ــ اسمع.. أنا لا أحتقرهم, ولست بصدد الحديث عمن بنى عدن, ولست منكرا حضارة عدن ورقي أبنائها, حتى وهم في أصعب الفترات وأقسى الظروف يحافظون على رقيهم وحضارتهم. أنا أتحدث عن أصدقائك أنت وعن شلتك الفاسدة, لديهم ظروف ووضعية تختلف عنا

ــ هم من أبناء عدن وهم ليسوا بالفاسدين, هم أهل المدينة وهم من يعرفون مدينتهم وما يصلح لها, وأنا أريد أن أعرف المدينة وكيف أكون

ابن مدينة. أما أنتم فستحتاجون إلى عشرين سنة كي تصبحوا أبناءً لهذه المدينة, وربما لن تتمكنوا من هذا بينما الجيل الثاني الذي سيأتي منكم قد ينجو من عقولكم المتحجرة إن لم تثقلوه بأحجار الريف المتخلفة

ــ معظمهم أصلا ليسوا من عدن

قالها بسخرية وتهكم, فقلت له متحديا:

ــ كل من أقام بعدن لسنوات أو ولد بها هو من "عدن", شئت هذا أم أبيت

ــ هكذا يتم تغيير الديمغرافية السكانية لأي منطقة أو مدينة, تقوم أنت بتغيير المفاهيم وليَ عنق الحقائق, كما فعلت أمس مع الدجاجة التي ذبحتها من أسفل عنقها.

ابتسمت رغما عني لسخريته اللاذعة, وقد كان محقا في ذلك حيث قمت بذبح دجاجة الغداء التي كانت تتحرك بقوة من أسفل رقبتها ولم يجد الرقبة التي يحبها عند الأكل, لكني قلت له:

ــ قبل مايقرب من مئة وثلاثين عاما من الآن, عندما دخلت بريطانيا إلى "عدن" وجدت أن سكان المدينة لا يتجاوز ألفا ونصف, عدن هي كريتر في الحقيقة باقي عدن لم يكن موجودا, أو كان ريفا من أرياف سلطنة لحج أو العقارب.

ــ أعلم هذا وكنت موجودا عندما كان " العم صالح" يحدثنا به

ــ الذي لا تعلمه أن معظم دول العالم التي تطبق النظام الفيدرالي خصوصا يقوم باعتماد جنسية المنطقة حسب المولد أو حسب الإقامة

لعشر سنوات حتى وهو من أبناء البلد, بمن فيها النظام الصيني الذي يقوم الرئيس الحالي بالتقارب معه, ويريد تطبيق الشيوعية الصينية في الحكم والعمل في بلادنا.

ــ هذا هراء.. كل من ينتمي إلى منطقة سيبقى منها, حتى وإن ولد في "عدن" فلا يزال لديه أسرة وأقارب ومعارف من منطقته, ولن يصبح ابن المدينة بمجرد أن يقال عنه "عدني"

اعتدل في جلسته وهو يكمل:

ــ أنت ولد الريف عشت طوال حياتك حتى سن المراهقة في الريف, وكل أصدقائك ومعارفك هم أقاربك أو أصهارنا وأصهار أقاربنا, كنا ننام في

أي بيت, وربما أمك لم تكن ترنا لأسبوع كامل ونحن في منزل عمك أو غيره من المنازل, نحن سنظل لدينا هذا الحاجز

ــ ماهو هذا الحاجز؟!, لا تتحدث بكلام ثم تصمت

ــ حاجز الغرباء أيها الذكي, أنت في الأخير سوف تترك أبناء المدينة بمجرد أن تصادق شخصا مثلك من ريفك.. من منطقتك

ــ مثلي؟! هل هذا أسلوب حوار؟

ــ ماذا أقول؟ هل سأقولها بالإنجليزية حتى لا تشعر بالإهانة

كان يقولها بتهكم وهو يكمل:

ــ go on, Find someone like you

تجاهلت سخريته مجددا وأنا أقول:

ــ المدينة هي انتماء إنساني وفكري, فما بالك بعدن التي تذيب بها الجميع في بوتقتها وحرارتها. أنت بنفسك تقول أنك تعرف أن "عدن" تكونت من أبناء المناطق وربما الدول الأخرى, كما أنك لن تنكر أن لهجة هذه المدينة مختلفة عن كل لهجات المناطق التي أتى منها أبناؤها, جميعهم ذابوا في بركانها الخامد وأنتجوا لنا هذه المزيج الجميل. المزيج العدني كحلواها وشايها وطبخاتها اللذيذة

ــ لست في طور الحديث الديمغرافي وتطور اللغات

ــ اصمت

لم يعجبه ردي فأراد أن يتعارك معي كما نفعل عادة, لولا دخول زوجتي "ليلى" التي استطاعت أن تهدئه, وهو للأمانة يحترمها كما أحترم زوجته, لكني كنت سعيدا لكي أعيد له سخريته بإهانتي له.

سرير الشهوة

في ظل الصراعات الدائمة حول السلطة والانقسامات المتتالية, قررت البقاء بعيدا عن السلطة بجسدي, لكني سأبقى قريبا منها بعقلي وجيبي, لذا فقد قررت بالتشارك مع بعض أقاربي وأبناء عمي "عبدالقهار", أن نفتتح محلا لبيع المواد الغذائية, وبصفتي قائما بالعمل بسبب انبهارهم بي لمعرفتي بالمدينة وبالناس, فقد كان علي ألا أسمح لشركائي بالبقاء معي في إدارة المحل بأي طريقة, فاقترحت عليهم أن نقوم بزيادة الأرباح من خلال توزيع البضائع, وتقسيم المهام بدلا من البقاء في مكان واحد فوافق بعضهم, بينما قرر باقي الشركاء العمل بمشاريعهم الخاصة وأعمالهم بعيدا عني مع البقاء كشركاء, وهو ماكنت أطمح إليه

للاستحواذ على العمل, كعنوان عريض للتحرك مستغلا علاقاتي مع أبناء السلطة الجدد في بيع مايحتاجون إليه من خمور وسجائر مستوردة يدمنون على شرائها, رغم منعهم للاستيراد على المواطنين من خلال صداقتي ببعض المهربين الذين يعبرون الحدود بين الشطرين وبيع كل مايمكن أن يباع, وهو الشيء الذي كان أبناء عمي وشركائي سيرفضونه ــ بكل تأكيد ــ فلا يزالون محتفظين بروح القرية والتقاليد متناسين أنهم في المدينة,وأي مدينة هذه .. إنها "عدن".

بدأنا نقوم بهذا النشاط بمعزل عن أخي الذي استطعت عزله عن مجموعة أقاربي وأصدقائي وعزلهم عنه, رغم أننا من أسرة أو قرية واحدة فقد كنت دائما ما أقوم بتشويه صورته بنقل أخبارا كاذبة عن عصبيته وتصرفاته الطائشة. بينما هو استمرأ الانعزال و تكوين صداقات

أخرى من قرى ومناطق أخرى داخل عدن, حينها تذكرت مقولة "جون ستيورات":

ــ الإنسان الذي لا يفكر بنفسه, لا يملك الحق في أن يقرر ما إذا كان يعيش حياة سعيدة أم لا

في تلك الفترة رزقت بولدي "سامر" كانت سعادتي لا توصف وأنا استقبله بين ذراعي, فأخذت أرقص وهو معي في أرجاء المكان, وأحسست أن الشمس أشرقت في منتصف الليل, وتلك الجدران الخضراء التي تغلف لون الإسمنت في حجرتي تبتسم لي, بل كانت تضحك وتزغرد وأخذت أكتب عشرات الأوراق عنه والتي تعبر عن فرحتي التي تغلف الكرة الأرضية, ولا تسعها هذه الأرض.

ــ ولدي يا بكري الجميل الذي حطم جبال اليأس في قلبي, وجعلني أحسد غيري على أبنائهم الوضيعين, فجئتني جميلا بهيا تبدو في عينيك ملامح الذكاء التي اكتسبتها مني, وستكون شجاعا مثلي ولأ بأس أن تأخذ من أسرة أمك بعض الصفات.. لنجعلها صفة أو صفتين فقط.. لأنهم لا يستحقون هذا الشرف, سأجعلك شيخ الأبناء والجيل القادم, وستكون مثار حسدهم وغيظ آبائهم وأمهاتهم في ذكائك وقوتك وشجاعتك وحبي لك, أنت عيناي ونور حياتي, فخذ من هذا النور الذي غلفت حياتي به ليعمق حبي لك في قلبك وتدرك كم أحبك.

ــ عندما تبتسم وما زلت في مهدك الجميل, أشعر بنفسي أحلق في سماوات من الأحلام والبهجة. سماوات تخصني ولا أحد يستطيع إدراك كنهها أيها البهي السامر

أسميتك "سامر" لكي تكون مسامرا لي في ليالي الزمن الحالكة, فأنت خير صديق لي وقد اصطفيتك لنفسي بهذا الشرف الذي لن يناله سواك ما حييت حتى لو أنجبت إخوة غيرك, أعدك بهذا يا.. السامر

لأول مرة أدرك أني أحب دون قيد أو شرط, كل مشاعري مشروطة بما يقدم لي الطرف الآخر.. إلا أنت.. حبي لك نقي, لا أريد منك شيئا سوى أنك ولدي, سوى أنك "سامر"

ـــ يا سامر القلب.. سأراك دوما صغيرا, ذلك الطفل الذي منحني شعورا مختلفا حين جاء, أنزلني من رتبة الشيطان التي أرى نفسي بها إلى

مرتبة الإنسان. جعلني أدرك مشاعري وأحس بها تسري في جسمي. جلعتني إنسانا رغما عني كي أستشعرك, وأفرح بك. رغم أنك مازلت صغيرا لكني تعلمت منك أهم صفة يمكن أن تمنح لإنسان وهي الأبوة, فليس من السهل أن تصبح أبا لطفل صغير لم تستشعره مسبقا, ولم تدركه إلا وهو مخلوق صغير بين ذراعيك

هناك قوة تدفعني لكي أكون الأفضل والأرقى والأغني, نعم سأكون غنيا من أجلك حتى أمنحك كل ما تريد, بل كل ما أريد أنا, فما تريده لنفسك ليس إلا حيز ضئيل مما أريده لك من رفعة وقوة وعلم وذكاء وثراء, ستكون أثرى طفل وستكون كل أموالي لك منذ الآن

أكتب إليك هذه العبارات في هذه المفكرة الضخمة لتقرأها عندما تكبر, وأنت في كامل قوتك ورجولتك وفي قمة نجاحاتك, لكي تدرك كم أحببتك,

وأنك وصلت لهذا المستوى الرفيع بإصراري ورغبتي في نجاحك أيها السامر في قلبي

لكي أقطع كل قول عن سبب تسمية ولدي بهذا الاسم فليس له علاقة باسم أحد من أبناء أخي مطلقا.

حسنا .. سأعترف لقد قمت بتحريف بسيط لاسم ولد أخي الأكبر "ساهر"، ماذا أفعل؟!, الحسد يحكمني حتى في عز فرحتي، ولو رزقت بأبناء آخرين سأستخدم نفس أسماء أبناء أخي مع بعض التحريف حتى لا ينتبه أحد لذلك، لكني لم أرزق سوى بولد واحد يحمل اسمي. هكذا أنا أتطلع لما يملكه الآخرون حتى وإن كنت أملك أضعافه مصداقا لما قاله "كونفوشيوس" ذات زمن:

ـــ ما يبحث عنه الرجل الرفيع موجود في نفسه، وما يبحث عنه الرجل الدنيء موجود عند الآخرين.

وهذا يوضح لنفسي دناءتي التي أعرفها, ومع هذا أستمتع بها وأحبها وبالتالي أصبحت الخطوة التالية هو أن انفرد بالمنزل دون أخي الذي نجحت في جعله بعيدا عن نشاطاتي وعلاقاتي, حتى مع أقاربي كما أسلفت, لذلك أوعزت لزوجتي "ليلى" أن تتولى مهام هذه المسؤولية ويكفي أن أمنحها شرارة الفكرة لتتولى هي بشيطانيتها تنفيذ المهمة, من خلال التكاسل والتقاعس عن القيام بمهام المنزل والتحجج بكثرة أبناء أخي وفوضويتهم وكانت دائما ما تصرخ عليهم وتشتكي لأخي منهم, حتى يقوم بضربهم دون هوادة في كل مرة, وأصبحت أرى زوجة أخي تقوم بكل أعباء المنزل بينما زوجتي تكتفي بالجلوس أمام التلفاز أو في غرفتها.

عرفت مبكرا حجم التحولات في عدن، حينما رأيت أبناء القرى الجهلة يتولون المناصب ويحتلون بيوت أبناء "عدن" بدعاوى العمالة للاستعمار والخيانة رغم أن القيادات كانت تملك بعض القدرات العلمية والثقافية والتمدن, لكن كل من كان دونهم من القيادات المتوسطة وبقية الموظفين لم يكونوا يملكون سوى الحماسة الثورية, ولن أخفيكم سرا إن قلت بأن بعضهم كان يمثل دور المتحمس الثوري من أجل التسلق والصعود, وبعد الاستقلال زاد عدد المتسلقين والمتصنعين حينما أدركوا أن بريطانيا قد خرجت للأبد، ولتعويض هذا النقص كانوا يغالون في إظهار تعصبهم الثوري وفي هذا يتساوى معظم القادة ومن تحتهم وتحت تحتهم. وما أكثر المتصنعين إذا اطمأنوا لسلامتهم ووثقوا بحسن صنيعهم، وفي كل مرحلة بل في كل عام يخوض المتسلقون مسلسل صراع جديد بسبب ضغط غيرهم من الطامحين بالتسلق من الصفوف الدنيا, وفي كل صراع

يستولون على منازل المنهزمين وملابسهم وسياراتهم, وحتى رتبهم وطريقتهم في الكلام.

أيقنت أن أكثر الناس صراخا في أي جماعة, هم المزيفون الذين يخفون حقيقتهم بإظهار تعصبهم المبالغ حتى لا يتم اكتشافهم, بالإضافة إلى تحقيق المكاسب أو تمييع القضية, وحينها تذكرت حكاية كنت سمعتها من أحد البريطانيين في ورشة "العم صالح" قبل أن يخرجوا من عدن, وكان وقتها يحذرني من تصديق شعارات الثورة التي يؤمن بها, لكنه يخشى من المتسلقين, فقال شارحا لي قصده بقصة قصيرة:

ــ عندما اكتمل عدد الركاب بالسفينة المتجهة من فرنسا إلى بريطانيا، كانت هناك امرأة فرنسية يجلس إلى جانبها رجل إنجليزي بالصدفة, وحين بدا التوتر ظاهرا على وجه المرأة الفرنسية سألها الإنجليزي:

ــ لم أراكِ قلقة؟!

قالت:

ــ أحمل معي عشرة آلاف دولار,وهي أكثر من الحد المسموح به

قال لها الإنجليزي بود:

ــ دعيني أساعدك بأن تقسمي الأموال بيننا, فإذا قبضت عليكِ الشرطة, أو قبضوا علي نجوتِ بالنصف, واكتبي لي عنوانك لأعيدها لك عند وصولنا إلى لندن

ولأنه لم يكن لديها خيارات أخرى نفذت المرأة الفرنسية ما قاله لها الرجل الإنجليزي وكتبت له عنوانها بورقة سلمتها له، وعند التفتيش كانت الفرنسية تقف أمام الإنجليزي في الطابور عند شرطة الحدود الإنجليزية ومرت دون أي مشاكل وهنا صاح الإنجليزي فجأة:

– ياحضرة الضابط, هذه المرأة تحمل عشرة آلاف نصفها معي والنصف الآخر معها, وأنا لا أخون وطني مهما كان الأمر, وقد تظاهرت بالتعاون معها لأثبت لكم حبي لبريطانيا العظمى ,ولائي للعرش الملكي ولحكومة بلدي, وهذا العلم العظيم

هنا قامت الشرطة بتفتيشها مرة أخرى, ليجدوا المبلغ وصادروه مباشرة، وتحدث الضابط عن الوطنية وعن ضرر التهريب على الإقتصاد الوطني وشكروا مواطنهم المخلص على وطنيته وتضحيته, وبعد مصادرة المبلغ أطلقوا سراح السيدة الفرنسية على كل حال, وأكملت طريقها إلى داخل البلاد، وبعد يومين فوجئت المرأة الفرنسية بالرجل الإنجليزي نفسه عند باب بيتها، فقالت له بغضب:

ـــ يا لوقاحتك وجرأتك، ماذا تريد الآن؟

ابتسم الرجل الإنجليزي, وناولها ظرفا به خمسة عشر ألف دولار. وقال ببرود إنجليزي مثير:

ــ هذه أموالك مع مكافأة خمس ألف دولار

استغربت المرأة من أمره. فقال:

ــ لا تعجبي ياسيدتي.. فقد أردت إلهائهم عن حقيبتي التي بها ثلاثة ملايين دولار.. كنت مضطرا لهذه الحيلة

أدركت أن العبرة من هذه الحكاية أن الذي يدعي الوطنية والشرف ــ بصوت عالٍ ــ هو اللص الحقيقي في الأغلب, أو الخائن والمنتفع أيا يكن موقفه، واليوم ما أكثر أشباه هذا الإنكليزي في وطني، فاختفت عبارات التحرر والتطور والفن والأدب, لتظهر بدلا منها عبارات على شاكلة:

ـ الإشتراكية والشيوعية والرأسمالية والإمبريالية والبرجوازية والعلمانية والليبرالية والبروليتاريا والخطة الخمسية والماركسية والعالم الثالث والرجعية, وغيرها من آلاف العبارات التي أكاد أجزم بأن من يرددها لا يفهم الفروق الجوهرية فيما بينها, لكنهم يملكون ما يكفي من ذكاء فطري لمعرفة متى وأين وكيف يضعونها ويستخدمونها؟

كنت في الحقيقة فارغا من داخلي, فعندما كان البريطانيون في عدن كنت أهتم بحفظ الكلمات والجمل التي قالها أدباء وساسة بريطانيا, وعندما خرجوا أصبحت أتقن ترديد العبارات الإشتراكية, ومقولات لأبرز مشاهيرالاتحاد السوفيتي والصين وغيرها, فكنت أستطيع مسايرة التيار والسباحة معه دون أن أعكر صفو أمواجه وسلاسة تدفقها, حتى لا أخيف أسماك القرش التي تسبح في الأسفل حيث الأعماق والوجبات الكبيرة, وقد ابتعدت مع مرور الوقت عن أصدقائي من أبناء عدن,

وأصبح لدي أصدقاء من القادمين الجدد من الأرياف، كانوا قرويين من مناطق فقيرة جدا وبيئات شديدة التخلف آنذاك، لكنهم أصبحوا يملكون النفوذ والمنازل التي استولوا عليها والسيارات، بينما كان الوضع المادي سيئا في ظل عجزالدولة الجديدة عن إدارة السياسات المالية, لأنهم لا يملكون الخبرة, ولم يعطوا لأصحاب الخبرة أي فرصة أن يتولوا الأمور، فمشكلة القروي هي ذكاؤه الحاد، ذكاء القرية الفطري والفراسة الحادة، لكن كل هذا دون تعليم وخبرة يصبح وبالا على الجميع، أما هم فأصبحوا يتمتعون بما نهبوه واستولوا عليه وكان يمكن أن تكون استفادتهم أكبر في ظل الوضع الطبيعي, لكن مع مرور الوقت كانت عملية استعادة مايصرفونه من الأموال ضعيف جدا في ظل الإنغلاق الاقتصادي وفقر السوق، وكما يقول المثل الشركسي:

ــ الثور لن يصبح ملكًا عند دخوله القصر، ولكن القصر سيتحول إلى حظيرة

وهذا ما حدث مع تطبيق السياسات الإشتراكية حين انتهى اقتصاد السوق إلى الأبد, وأصبحت الدولة هي التاجر وهي المستهلك وفي نطاق ضيق, ولن تستفيق المدينة من هذه النكبة مجددا.. أعلم هذا.

صرت أراقب أخي في عمله,ويبدو أنه لم يستشف مما حدث من تغيرات أن الأمور تسير نحو الأسوأ, فلم تعد تصل السيارات الحديثة إلى البلاد كما كانت في السابق, كما أن بعض السيارات الروسية التي تصل لم يكن يصيبها العطل كثيرا, ولم يكن هناك الكثير من قطع الغيار في السوق, وموضة تركيب مسجلات السيارات انتهت, لأن السيارات الحديثة أصبحت

تأتي بمسجلاتها من مصانعها, فبدأ العمل يضمحل رويدا رويدا لديه, حتى قام هو و"العم صالح" بإغلاق المحل بشكل نهائي, وبعد محاولات أخي في فتح محل خاص به أغلقه بدوره, فهو رغم ذكائه في عمله إلا أنه لم يكن بارعا في فهم ما حوله من متغيرات وأحداث, وفي النهاية ساعده أحد أصدقائه ــ وكم أحسده على أصدقائه دوما ــ في الحصول على وظيفة في أحد قطاعات الدولة ككهربائي سيارات, ليتحول من صاحب عمل إلى موظف يجمع بعض الدراهم كل شهر, وكان هذا يسعدني وأنا أراه كلما قابلته قادما من دوامه الوظيفي أو ذاهبا إليه في الحر الشديد, متعبا متذمرا مقابل لاشيء فعليا, وأصبحت أظهر قوتي المالية أمامه وأمام أولاده وأسمعهم بين حين وآخر عبارات مثل: ــ والدكم غبي

لقد طلبت أن أساعده لكنه رفض

والدكم عصبي لا يفهم

تحتاجون إلى أشياء كثيرة فقد كبرتم

وفي الحقيقة كان أبناء أخي الثلاثة أذكياء, ويدركون مغزى كلامي فكانوا دائما يرفضون كلامي ولا يتجاوبون معي, ويرفضون في أحيان كثيرة ما أمنحهم إياه من مصروف صغير لكسرنفوسهم, فكانوا هم من يكسرون غروري وهو ما ولد قدرا كبير من الحقد تجاههم سينمو إلى أن يصل إلى الذروة مستقبلا.

حاولت زوجة أخي أن تتأقلم مع ظروفها الجديدة قدر الإمكان, وهي ترى نفسها تتحول إلى وضع جديد لم تألفه سابقا, فأصبحت تعوض ما لا يقدر عليه أخي " حسن" الذي أصبح مقترا بشكل كبير بما تحصل عليه من

إخوتها أو أقاربها بالصرف على أبنائها الذين كانوا يكبرون شيئا فشيئا, ولم تكن تريدهم أن يصبحوا أقل من ولدي أو أبناء أقاربنا الآخرين, وكانت مثالا للزوجة الصالحة والأم المثالية وربة بيت ممتازة زاد هذا من نقمتي على أخي رغم سوء وضعه.

في تلك الفترة التقيت بأبي. أبي الشيطان مجددا, قبل أن أتجه إلى عملي في الصباح الباكر وبينما كنت أنتظر في غرفتي طعام الإفطار من زوجتي, رأيته أمامي كالسابق تماما غير أنه لم يكن يحمل حقيبته العجيبة, فبادرته بالسؤال مباشرة:

ــ أهلا, كيف حالك؟

ــ أهلا, بخير, كيف حالك أنت؟

ــ بخير

ـ ستمطر اليوم

ـ كيف عرفت؟ المطر نادر على عدن؟

ـ هذه المرة لا, ستحدث سيول مدمرة في عدن.. إنها أفعالي

قال العبارة الأخيرة بفخر. كانت المحادثة مهذبة وغير تلقائية ويبدو أني حصلت على مكافئة كبيرة لكي ألتقي به مجددا ففضلت مع قليل من الخوف أن يكون الحوار وديا وشخصيا فقلت له:

ـ ما اسمك؟

ـ إبليس

ـ من منحك الاسم؟ هل هما والداك

ـ ليس لدي أبوان

ـ أووه..

كنت مندهشا بحق وأنا أقول له:

ـ كنت أود الاستفسار منك عن بعض القصص والـــ..

ـ لا تصدق أي قصص.. كل ما تسمعه ملفق

ـ حتى مشكلتك مع الله

ـ كنت ملاكه المقرب

ـ هل سيسامحك؟

ــ مشكلتي ليست مع الله, فما زلت أحبه, وأنا مخلوقه الأرقى. هديته الكبرى للكون, أنا أعظم مخلوق على الإطلاق, لم أعصه مطلقا, لكني أسعى لأن تعصوه أنتم, مشكلتي معكم أنتم.. إلا من أطاعني

أكمل العبارة وهو حانق بعض الشيء, ولا أدري إن كان غاضبا مني, لاحظت حينها أن الشيطان يحب الحوار الجيد ويسعد به, لكنه اختفى بمجرد دخول "ليلى" إلى الغرفة, في تلك اللحظة رأيت زوجتي جميلة للمرة الأولى والأخيرة في حياتي ــ المرة الأولى بعد زواجنا ــ لأني كنت أرأها جميلة قبل أن أتزوج بها, لكني بشكل عام كنت لا أزال أعاني من آثار النوم وإرهاق الاستيقاظ قبل أن أتناول إفطاري والكثير من الشاي العدني اللذيذ, ومنذ ذلك اليوم أصبحت لدي مشكلة مرضية عنيفة حيث

أصبت بمرض سبب لي مشاكل نفسية عديدة وهي أني أصبحت أرى وجوه الناس بشكل مشوه, وجوه مموهة ومتعرجة. أخبرني طبيب عيون زرته مرة أن هذه مشكلة نفسية رائجة تسمى بمرض الوجوه الشيطانية ولا علاج لها, وأن علي الذهاب إلى طبيب نفسي, فصرفت النظر عن الأمر متقبلا مرضي على أن يقال أني صرت مجنونا, فمثلي لا يُجن.

كان على القادمين الجدد إلى المدينة أن يتبنوا أفكارا مغايرة حتى ينجحوا في الصراع مع القوى الموجودة, والتي كانت تحمل أفكارا بريطانية بحكم العمل في الإدارة والسوق رغم صراعهم معها, وتلك الأفكار المغايرة لن تكون في مستوى جذب الإشتراكية ومبادئها التي تغزو العالم بلا انقطاع أو توقف, ومع مرور الوقت أدركت صعوبات الوضع, وكنت أمام خيارين لاثالث لهما إما أن أكون جزءا من الدولة أو أن أسافر مهاجرا إلى دول

الجوار, كما فعل الكثير من أقاربي وأصدقائي, ومنهم أبناء عمي الذين كانوا شركائي في العمل، ولأني أملك عقلا شيطانيا فقد أدركت أن تولي منصب سياسي في الدولة ستكون عواقبه وخيمة, في ظل التنافس المحموم بين تيارات الثورية والأيدلوجية مخلوطة بالمناطقية والحزبية وملعونة بماء العنصرية والطبقية, فقد قال الرفيق "جيفارا" يوما ما:

ــ الثورة يصنعها الشرفاء، ويرثها ويستغلها الأوغاد.

كما أني لا أرغب بالهجرة, فلا يمكن لي أن أعيش بعيدا عن "عدن" فاهتديت إلى حل ثالث بعبقريتي يجمع بين الخيارين بمواصفاتي الخاصة الشيطانية. أن أكون جزءا من الدولة دون أن أتولى أي منصب من خلال الاقتراب من المسؤولين, وأن أجرب السفر دون أن أهاجر إلى الأبد، فالذي سأحصل عليه من علاقاتي مع السلطة سأستثمره بالغربة, وما

أستفيده في المهجرأستخدمه لزيادة نفوذي في أوساط المسؤولين، وما يوجد بالغربة سأجلبه إلى "عدن", ومالا يوجد هناك سأتاجر به.

ـــ الفكرة بحد ذاتها ليست سهلة ناهيك عن تطبيقها.. لكني لها.

ولأن المال ينقصني فقد اخترت أسهل الطرق وأقدمها لجلب المال, عن طريق استخدام النساء ولأني أجهل الطريقة, كما أني لست من ذلك النوع المنشغل بالنساء كثيرا, دون أن أتعمق بهذا الحديث كثيرا؛ فقد بدأت بالتنفيذ, حيث تعرفت على الكثير من الفتيات من خلال علاقاتي السابقة مع الأصدقاء, والكثير منهن كن من عائلات مرموقة كانت تمثل المجتمع المخملي في المدينة كذلك, وبعد الثورة أصبحت بعض تلك العائلات بلا مصادر دخل, والكثير منها فقدت من يعيلها في حملات التصفية والاعتقالات أو هربوا من البلاد مع من هرب, لكنهن كبنات عائلات

ولهن جذور لن يفدنني في تنفيذ فكرتي, ولا يمكن استدراجهن لهذا العمل, لذلك قمت بالبحث عمن يمكن أن تساعدني في تنفيذ مخططاتي فوجدت بينهن بعض النساء ممن تقطعت بهن سبل الحياة ولا يملكن أقارب بالمدينة حتى يتحركن بحرية, وكانت أبرزهن "أشجان" من أب اسكتلندي عابر على المدينة, وأم هندية كانت تعمل ممرضة في أحد المستشفيات البريطانية, وقد ولدت في "عدن", فاستطاعت أن تظهر نفسها كعدنية المولد والهوية وكانت تمتلك جمالا خاصا، سمراء بعيون خضراء كأنها حقول قريتي في نهار بارد يسري في العروق ويجلد الشرايين في ارتعاشات لا متناهية من الرغبة والخرمة, يكفي أنها الوحيدة التي أراها منذ زمن طويل بملامح وجهها الحقيقة, بلا مرضي اللعين الذي يشوه الوجوه, ولا أعرف السبب, لهذا عشقتها بشكل

جنوني, كأنها أول امرأة أراها في جزيرة معزولة, أدركت بها معنى الحياة وفهم الكون.. ورجولتي.

تعرفت إلى "أشجان" في مشروعي الجديد حيث كانت تأتيني النساء بحكم عملنا في بيع المواد الغذائية, وكانت النساء مختلفات في طبيعتهن وعاداتهن ومستوياتهن التي بدأت تقترب من بعضها البعض, في ظل حكم الرفاق الصاهر لكل شيء في البلد, حيث تذوب الفوارق بين الطبقات بعد أن طحنت ببعضها البعض, وكانت "أشجان" جميلة ورقيقة بوجه طفولي وملامح هجينة وكان صوتها رقيقا ومنخفضا جدا, ولم تكن تجادلني أو تفاصلني في الأسعار كما تفعل النساء جميعا حيث تتساوى النساء على جميع أطيافهن ومستوياتهن بهذا الشأن. كانت أشجان مختلفة حتى في انخفاض نظرتها وانصرافها السريع وهي تجر وراءها

قواما ساحرا يبقى ولا يذهب كعطرها الأبدي الذي يدوم كحسرتي, وأنا أتخيلها, وأصبحت أفكر بالزواج مجددا ولم تكن هذه الفكرة قبل رؤيتي لها لتجرؤ على الظهور في رأسي خوفا من الساحرة التي في بيتي.. زوجتي "ليلى".

غابت "أشجان" لمدة طويلة هذه المرة تتجاوز الشهر, وعندما ظهرت كان قلبي هو من يستقبلها, وأنا أحاول كتم دقاته ولو اضطررت لطعنه حتى لا يفضحني, بينما هي بصوتها الخفيض تذيبني في يخضورعينيها كي أحيا كعليق متطفل في ظلها, وبعد أن اشترت كل ماتريده انصرفت كما المرة الأولى. ولم أعد كما كنت في المرة الأولى فلم يبقَ لي من هدف في حياتي إلاها. أصحو عليها وأنام وهي في حضني بعيدا عن المحسوبة على صنف النساء في بيتي.

غابت "أشجان" ولم تعد, وأنا أحسب الأيام التي انتحلت صفة السنوات في دوارنها البطيء, وكنت أمني النفس بأنها ستغيب كالمرة الأولى أو أقل منها, لكنها للأسف الشديد لم تبادل أماني نفسي بأحسن منها, فمر الأسبوعان ومثلهما أربعة أضعاف, وأنا أعاين أضراري واضطرابي ورجولتي الضعيفة التي تذوي, لكنها بعد شهرين أقبلت وهي حزينة مطرقة رأسها إلى الأرض أكثر من ذي قبل, وكنت قد عزمت النية على ألا تخرج من محلي دون أن أتحدث معها. فاتحتها الحديث عن سبب غيابها وهو ما يبدو لمس فيها جانبا حساسا في قلبها, حيث نظرت إلي نظرة تذيب قلبي الفولاذي بعينيها الخضراوين الساحرتين وسرحت في خيالات وغصت في عوالم لا تنتهي فاقدا للتوازن والشعور إلا منها هي, وبينما أنا في رحلتي الغامضة وجدت نفسي فجأة أخرج من كل هذا إلى

الواقع حيث أخشاب المحل وعلبه, وهي تبكي ودموعها تنساب على خديها السمراوين الأسيلين.

بسبب ظروف البلد فقدت أشجان الكثير ممن تعرفهم بسبب السفر أو الاعتقال أو الاغتيال كما أخبرتني, فتزوجت من ضابط جاء من قريته إلى المدينة منبهرا بكل مافي المدينة من نظافة وأناقة وحداثة و.. نساء من خلال "أشجان", أراد أن يصبح من أهل المدينة وبيده السلطة والمال لكن دون أن يتخلى عن أحشاء القرية في ذهنه وفكره وسلوكه, وهكذا أصبحت "أشجان" سجينة في منزله, ولم يكن يسمح لها بالخروج إلا نادرا أو تتسلل حينما يغيب عن وعيه بسبب سكره في ليالي عدن الدافئة, وكثيرا ماكان يضربها, وإن شئت الدقة كان يعذبها بربطها بالحبال, ثم ضربها بكل مايمكن حمله من مكانس وأسلاك كهربائية وأحذية وأواني المنزل المختلفة, وقد أرتني جانبا من ذراعها البض

المخملي وهو مصاب بخطوط مختلفة الألوان من آثار التعذيب مختلفة الألوان بسبب اختلاف زمن التعذيب.

كانت دموعها لا تكف عن السقوط حين كانت تتحدث, بينما كانت أمشاج قلبي الدامي تتمزق إربا, فأنا رغم كل مساوئي لم أكن لأجرؤ على ضرب امرأة, لذا فقد قررت مساعدتها فورا دون السماح لفرصة اللقاء القادم التي قد تتأخر أو قد لا تأتي مطلقا فسألتها عن رغبتها. لم آخذ منها النقود رغم رفضها لكني أردت كسر كل حواجز الهواء بيننا, وقبل انصرافها طلبت منها أن تأتيني إذا أرادت أي مساعدة من أي نوع, كما بينت لها أني غير راضٍ عما تتعرض له. وبعد يومين حضرت مجددا تمشي كأنها فوق سحابة من الورد الذي تخشى أن تؤلمه, لا في شارع ترابي مليء بالحجارة, بمجرد وصولها إلى المحل قالت لي مباشرة ودون أن مقدمات:

ـ كيف ستساعدني؟!

كنت أتفرج علي وجهها العدني الجميل وهي تحادثني ويبدو أني نسيت كل شيء يدور حولي بمن فيها هي وأنا أتأملها.

ـ هيييه, كيف ستساعدني؟!

ـ هذا يعتمد على ما تريدين؟

ـ أريد الخلاص منه

ـ الخلاص أو التخلص؟

خافت قليلا وهي تتلفت حولها:

ـــ لا.. لا أريد القتل

ـــ من قال القتل؟!

كنت خائفا من ردة فعلها أوأن تتوقف عن القدوم إلى محلي, لذا فعلي أن أجعلها تأتي مجددا لكسر آخر الحواجز, فقلت لها:

ـــ اسمعي, دعيني أفكر بالأمر وتعالي في الغد, زوجك صاحب منصب عسكري كبير ويجب أن يكون الخلاص منه بطريقة بسيطة, وأن يتركك هو من تلقاء نفسه

ظللت طوال الليل أفكر في طريقة أساعد بها "أشجان" للخلاص من زوجها, وكانت كل الطرق في رأسي توصل إلى قتله, وهو الأمر الذي أستبعده في كل مرة يطرق ذهني, فلا أعرف ردة فعل "أشجان" التي قد

تبلغ عني, لذا استمر عصف الذهن في رأسي طول الليل دون أن أذوق حلاوة النوم إلا لأوقات متفرقة سرعان ما أعود منها إلى دوامة التفكير, حتى برقت في ذهني فكرة عبقرية ونظيفة للغاية دون أي جناية, أو على الأقل دون أي جناية ظاهرية, حينها فقط شعرت برغبتي بالخلود إلى نوم فلا شيء يعادل الانتصار بفكرة إلا ميدالية النوم الذهبية.

في اليوم التالي ظللت ليوم كامل أنتظرها, وأتعثر بخطواتها في اليوم السابق, حيث كانت لا تزال ظاهرة على تراب الشارع أمام محلي.. على الأقل في ناظري, لم تأتِ بعد.. ظللت أنتظرها طوال اليوم, لم تأتِ أيضا, هل هي بخير؟!, هل تعرضت للأذى من قبل زوجها المتغطرس بعسكريته وحماقته؟, قمت بتمديد العمل في المحل لساعة إضافية؟ لكنها لم تأتِ, كنت حزينا طوال اليوم, لكن حزني بعد إقفال محلي كان مضاعفا, وقد أيقنت استحالة رؤيتها مع خوفي من فقدانها إلى الأبد, وعند عودتي إلى

البيت لم أتحدث بأي كلمة في طريقي إلى سريري, مكاني المفضل الذي تأتيني به أفكاري الجميلة وجثة الشيطانة "ليلى" تنام بجانبي بوجهها القبيح.

في الصباح صرت أمني النفس بمجيئها إلى محلي حتى أستريح من التفكير وهمّ الانتظار. لا شيء يقتلني كإنسان مثل مراقبة الانتظار نفسه, وأنا أعد لحظاته وأترقب انفضاضه بوصول الخبر وليكن سيئا.. لا بأس. المهم أن أتخلص من هذا اللعين الملقب بالانتظار, وكما كان في اليوم السابق أمسيت هذا اليوم دون جدوى. صرت مع هذا الانتظار مجرد رجل بروح لكن بلا جسد, الجميع يتحدث عن روح بلا جسد, يصبح ميتا, ولم يتحدث أحدهم عن روح هائمة بلا معنى لها حين تفارق الجسد.. تبقى بانتظار ساعة الصفر كي تعود إلى جسدها الذي تتشكل به, فيصبح لها

صوت وحركة وإحساس واسم تدعى به وتتمايز به عما سواها من الأرواح. الجسد هو أهم مافي الإنسان وليست الروح, هذا الجسد خلقه الله في أحسن تقويم, بينما تبقى الروح سرا إلهيا؛ سرا غامضا بلا هوية ولا شكل ولا معنى إلا بالجسد وبغيره تبقى مجرد أمر في رحلة انتظار.

طالت أيام انتظاري الروحية و"أشجان" لم تأت, مجيئها أصبح هو أملي بالحياة وليكن ما يكون بعدئذ, حتى وإن اشتعلت البلاد بحرب وهي تعشق الحروب والدماء, ورغم أني مازلت أمني النفس بمجيئها وبأنها قد أحسنت الظن بكلامي, لكني بدأت أصاب بالإحباط وتلبسني اليأس حتى أصبح هو أنا.. بسلوكي ولمحاتي ونظراتي وكل ما يمت إليَّ بصلة, وبينما أنا في بعثرات الحيرة والملل واليأس بعد مرور ثمانية أيام جائت.. وجدتها أمامي وأنا منشغل مع بعض العملاء, حين التفت لأجدها

وهي تلف عودها الأشجاني بالشيذر العدني الأسود الذي يجسد الفتنة ولا يخفيها, خصوصا حين تتمخطر فوق أرض مدينة تحبها فتميل معها.

أنهيت عملي مع عملائي بسرعة ريثما أتحدث معها وقد جعلتها تجلس على كرسي خشبي, فمثلها لا ينتظر قلتها كثيرا ومثلي لا يقوى على كثرة غيابها, وبمجرد أن بقينا وحدنا وخشية أن يأتي عملاء آخرون يقطعون مانحن بصدد التطرق إليه من حديث, طلبت منها أن أغلق الباب لكنها رفضت بخوف, وحق لها أن ترفض فهي لا تعرفني ولا تعرف مقدار حبي لها فقلت لها:

ـــ من حقك أن ترفضي, لكنك لا تعلمين بقدرك عندي

ـــ أعلم هذا

ـــ حقا؟! كنت أظنك لم تنتبهي لهذا

ـــ مهما حاول الرجل إخفاء إعجابه بامرأة ما فهي تعرف, نظراتها له تختلف, ابتسامته, حركاته, ارتجاف قلبه.. تستطيع المرأة أن تسمعه

ـــ اعذريني.. لم أكن أعلم هذا, كما أن قرويتي تجعلني عاجزا عن إخفاء تصرفاتي التي قد أزعجتك

ـــ لا, لم تزعجني, أنا خائفة قليلا.. وربما ليس للأمر علاقة بك ولكن بزوجي المتخلف الهمجي

ـــ هل ما زال يضربك؟

ـــ ...

اكتفت بالنظر إلى الأرض وهي تتحسس شعرها المختبيء خلف غطاء الشيدر الأسود, ولكني استطعت أن أتبين حجم الدموع التي تتجمع خلف صحن عينها والتي منعتها من السقوط رموشها الساحرة وهي تمتد في الهواء كرماح ردينية صلبة, فقلت متعاطفا:

ــ اعذريني .. لم أر..

رأيتها تقف وتنظر إلى باب المحل, وعندما تأكدت من عدم رؤيتها لأحد قادم إلى المحل, كشفت عن شعرها, فإذا بي أرى بقايا شعر مقصوص بطريقة عبثية بين قصير وطويل وأماكن في جمجمة رأسها تبدو واضحة بلا شعر, أصابني هذا بالرعب وأنا أشاهد شعرها البني الجميل بهذا الشكل, فلم أتمالك نفسي إلا وأنا أصيح:

ــ هذا الجبان.. أقسم بالله بأنه سيندم على هذا

ــ أرجوك.. اهدأ

قالتها وهي تشيرإلى باب المحل خشية من وجود قادمين أو مستمعين, فطلبت منها مجددا أن أغلق الباب, وأنا أقسم بعدم الإضرار بها ولكني أود محادثتها حول طريقة مساعدتها والخلاص من هذا الزوج الغاشم, فوافقت بعد تردد, ولم أكن مستوعبا للحظات أنها تجلس أمامي وحيدة, كانت تجلس وعيناها إلى الأرض بعد أن أعادت تغطية رأسها. سحبت كرسيا وجلست أمامها تماما لا يفصل ركبتيّ عن ركبتيها سوى أنملة أو أقل بينما هي مازالت في وضعها المترقب خشية إخلالي بوعدي, فقلت لها:

ــ لقد فكرت كثيرا في طريقة مساعدتك, وكما تعلمين نفوذ زوجك وقوته, فلا تصلح المواجهة أو طريقة الإبلاغ عن طريق التقارير الكيدية

خشية وقوعها في يده في نهاية المطاف بشكل مباشرة أو عن طريق أتباعه

كانت قد بدأت تنتبه إلى كلامي, وأني من الممكن أن أساعدها بالفعل, فأكملت حديثي, وهي تنظر إلى بعينيها النجلاوين على اتساعهما وهي ما جعلني مرتبكا بعض الشيء في البداية:

ــ أفضل طريقة لمساعدتك دون أي مخاطر عليك مستقبلا أو علي بالطبع, هي أن نستخدم السحر. السحر الذي يجعله يكرهك ويطلقك, ولا يقترب منك مستقبلا

ظهر عليها بعض الاهتمام مخلوطا بالارتباك وهي تقول:

ــ هو يكرهني دون هذا السحر

ــ هو يحبك ويغار عليكِ, هو متيم بك, لكنه لا يستطيع التعبير وفق نشأته القروية والعسكرية عن حبه لك إلا بطريقة التملك الطفولية المريضة, ثم من يعرفك لا يمكن أن يكرهك, فما بالك بزوجك الذي..

لم أستطع إكمال جملتي بمغزاها الجنسي, لكنها كما يبدو فهمت المعنى فابتسمت لأول مرة متقبلة إيحاء العبارة التي لمست أنوثتها الخصبة, فقالت وهي تميل قليلا في جلستها وتضع كفيها على ركبتيّ:

ــ هل أنت متأكد من جدوى هذه الطريقة؟

ــ نعم.. على مسؤوليتي

كنت منشغلا بكفيها وهما يلامسان ركبتي, أسعد أعضاء جسمي هما الآن, فكيف لا وهما أول من تلمسه, أخبرتها بأن عليها أن تحضر قطعة من ثياب زوجها التي يلبسها دون أن تغسلها, وأن تضعها في كيس بلاستيكي, أو سلة من أي نوع, و سأقوم بدوري بالذهاب إلى ساحر مشهور خلف الحدود في الشطر الشمالي, وهذا أصعب مافي الخطة لأني سأضطر إلى عبور الحدود الملتهبة بين الشطرين, لكن من أجلها هي فكل شيء هين ويستحق المجازفة. شاهدت وجهها وهو يستعيد طلاقته ويكتسي بسماره المورد الرقراق كمياه الوديان في بلادي. نهضت وهي في أوج سعادتها وحضنتني كأنها طفلة تتعلق بأبيها حينما أدركت أنه سيكون إلى جانبها, حينما شك بها كل الناس. كان جسمها البض بين ذراعيّ يهتز في موجات لا تنتهي وأنا أقوم بتحريك كفي بحركات خفيفة لا تشعر هي بها لأستشعر روعة تلك الاهتزازات, وفي نهاية فترة هذا

الحضن التي طالت بالنسبة لي رغم قصرها ابتعدت بعد أن قبلتني, ولم أشعر بقصر اللحظة إلا بعد أن انصرفت واعدة إياي بإحضار الملابس بأقرب فرصة. ذهبت وبقينا وحدنا أنا وكل مشاعري المتناقضة وأحاسيسي المرتبكة ورجولتي الميتة التي شعرت بها تحيا للحظات ثم تختفي حتى وهي معي.

يوم العبور

في اليوم التالي وبينا كنت أترقب لحظات مجيء "أشجاني" المعتادة, وقد أصبحت أناديها هكذا بعد كل الذي سببته لي من ترقب واشتياق, فاجأتني أخي "حسن" بأنه اشترى قطعة أرض كبيرة في أحد أحياء "عدن" البعيدة وبأنه سيبني في جزء منها منزلا صغيرا له، وهذا ما جعلني عصبيا, فكيف له وهو الذي أصبح موظفا يستلم القليل من راتب يكفي بالكاد أولاده ويقتر عليهم لعدم كفايته, فإذا به اليوم يشتري أرضا ويبني عليها منزلا. كان غضبي وحقدي عليه كبيرين حتى أني لم أبارك له, وبقيت متجهما طوال اليوم, وهو ما لاحظه الجميع قبل أن تسحبني زوجتي

"ليلى" إلى حجرتنا الشيطانية موبخة إياي على تصرفي, وفي الخارج كان أخي يستغرب ردة فعلي مع زوجته "بدرية":

ـــ هل ترين ردة فعل "حسين" طبيعية؟!

ـــ ربما ضايقه شيء في عمله

ـــ حتى لو كانت هموم الدنيا كلها على رأسي. هل كنت سأتصرف مثله؟!

ـــ تختلف طبيعة الناس وتحملهم

ظلت زوجتي توبخني بقسوة, وربما كانت هي الشخص الوحيد الذي أتحمل هذا منها, ولا أدري سبب تحملي وهي تلومني قائلة:

ــ سودت وجهي اليوم, غدا سيخبرون الناس عن هذا

ــ مالي وللناس؟

استدرت وأنا أقول بغضب مواصلا حديثي:

ــ لم أتحمل هذا, كيف يستطيع شراء أرض وبناء منزل بسهولة وأنا تاجر مواد غذائية ولا أستطيع؟!

ــ إذا كان هذا الأمر.. يهمك فاترك لي طريقة معرفته

ــ ماذا ستفعلين؟

ــ زوجته على نياتها, وسوف أستدرجها بالحديث ومعرفة كل شيء, إن كان يهمك إلى هذه الدرجة

ـــ نعم يهمني, كل ما يفعله هذا الشخص يهمني.. ليس لي شغل في الحياة إلا هو ومعرفة أخباره وأخبار أولاده وأحفاده مستقبلا ـــ أولاده..

قالتها بغل وحقد كبيرين, يعبران عما في نفسينا تجاه أخي وأولاده, وفي الحجرة الثانية كان أخي لا يزال غاضبا مني وهو يقول:

ـــ لم أكن أتخيل أن تكون ردة فعله رغم طبيعته الحسودة

ـــ إذا كان أمر مباركته له واعتذاره يهمك فاترك لي هذا الأمر

ـــ ماذا ستفعلين؟

ـ سأتحدث مع زوجته عندما تأتي لي لمعرفة كيفية حصولك على الأرض وأمثل دور الساذجة وهي ستقنعه, هي تعرف كيف توجهه؟!.. المهم هو أن تكون علاقتكم جيدة

استمرت الأحاديث الثنائية بين الحجرتين, وهي على تناقضها تكشف مدى الاختلاف بين طبائعنا وتفكيرنا, بين الذكاء من أجل الخير والذكاء الشيطاني المؤلم, وكنت أنوى تقديم تقارير ضده لأصدقائي المسؤولين كعميل رأسمالي معادٍ للتوجه التقدمي في بلادنا, إلا أن زوجتي "ليلى" أقنعتني بالعدول عن هذه الفكرة، لأني سأكون مسؤولا عن أسرة أخي بأطفاله الثلاثة وزوجته أو سيلومني الجميع إن تخليت عنهم, وفي تلك الليلة كاشفت زوجتي بنيتي الذهاب إلى الشطر الشمالي عبر الحدود تهريبا من أجل العمل, وطلبت منها أن تسرق قطعة من ملابس أخي

"حسن" لأخذها معي إلى ساحر خلف الحدود لتدمير حياته الزوجية, لكنها بتفكيرها الشيطاني أقنعتني بأن زوجة أخي لا تستحق هذا, وليس من مصلحتنا نحن تدمير حياته الزوجية, لكن سيكون الأمر مثيرا للاهتمام بتدمير علاقته مع أبنائه ورؤيتهم يعانون في مستقبلهم الذي سيكون مشرقا, وليس كولدنا "سامر" الأحمق, فأبديت موافقتي على تفكيرها الشيطاني.

أتت لي "أشجان" في اليوم التالي يملؤها الحماس وتحفها الزهور التي استخلصت منها رائحتها الزكية, فأصبحت الورود تملك عبقا ساحرا, ومعها سلة منسوجة من البلاستيك وبداخلها ملابس داخلية لزوجها مكونة من سروال وفانيلة, وقد حييت فيها ذكاءها في اختيار نوعية الملابس لقربها من جسده ومختلطة برائحته مما يجعلها ملائمة أكثر

لتنفيذ المهمة, كما منحتها علبتين من الأدوية. تعطي زوجها حبة من كل دواء, حيث تعملان كمخدر ومهدئ أخذتهما من صديق يعمل طبيبا نفسانيا في مستشفى الأمراض العقلية, وستجعلانه خائر القوى فاترا كما أنه سينام فور أخذه للمخدر, فانصرفت سعيدة مبتسمة كما لم أرها مقبل, بعد أن وعدتها بالذهاب في أقرب فرصة إلى ما وراء الحدود لتنفيذ ما اتفقنا عليه.

سعدت أيما سعادة وأنا أرى ابتسامتها التي تتوج جمالها كما يفعل التاج فوق رأس الأميرة الحسناء, وحري بها أن تكون أميرة أكون أنا تاجها, ومن أجلها سأفعل المستحيل حتى أحصل عليها وتكون لي وحدي بغض النظر عن طريقتي في الحصول عليها, فقد قرأت مرة للفيلسوف العظيم "كارل ماركس" مقولة يعبر بها عن فكرتي قائلا:

ـــ إذا كانت الغاية تقدس الوسيلة, فالغاية عديمة القدسية

ومن أجل هذا تهون الصعاب كلها أمام الحصول على الهدف وامتلاكه, فكيف إن كان هذا الهدف هو "أشجان"؟! التي فاجأتني بعد يومين بحضورها إلى محلي.. طالبة مني أن آتي إلى منزلها الذي يقبع في آخر الحارة, فزوجها يغط في نوم عميق بعد أن شرب ما يكفي لإخماد فيل من الخمر والأدوية التي قدمتها لها, حيث جربتها ليلة البارحة بنجاح, ورغم أني كنت مترددا للإقدام على هذه التجربة إلا أن كل شيء يهون من أجلها, على ألا تتكرر حتى لا نفسد خطتنا قبل إنجازها.

في الحقيقة كانت ليلة ساحرة مليئة بالطعام الشهي الذي أعدته بأناملها الساحرة ووصلات الرقص المغري, وهي ترتدي "الدرع" الذي لم يجد امرؤ القيس مناصا من التغزل بحبيبته وهي ترتديه في معلقته الشهيرة,

لتحتفظ "عدن" بهذه الميزة مانحة بناتها معلقات من الدهشة والآهات متوجدة بعقود الفل والإغراء, لكني انصرفت مبكرا خشية انكشاف أمرنا رغم رغباتي التي تتوهج كلما التقيت بها, ولم أحظ منها رغم كل ذلك سوى بقبلة صغيرة على شفتيها, حاولت هي أن تكون خفيفة كما تفعل أنثى الشاهين حين تلقم صغارها لقيماتها.

صرت أرى أخي وهو يعود إلى منزله ظهرا بعد نهاية دوامه ثم ينصرف بعد أن يتغدى كي يقوم ببناء منزله, بينما قلبي يشتعل غيظا وينفطر كمدا وأنا أسمعه وهو يتحدث عن الإرهاق الذي يتعرض له في بناء المنزل الذي رغم بساطته, إلا أنه يرى نفسه مثل ملك يبني مملكته بالحب والفخر, وفي الحقيقة ساعده في بناء منزله مجموعة من زملاء عمله الذين قرروا أن يساعدوا بعضهم بعضا في هذه المهمة, فكل من يريد

البناء سيكون الجميع معه تحت خدمته رغم وظائفهم الحكومية, إلا أنهم يملكون مهنا مختلفة اكتسبوها خارج العمل, أو قبل انضمامهم فمنهم الباني والكهربائي والسباك والدهان, ومنهم الذي لا يملك أي خبرة فتكون مهمته المساعدة والعمل العضلي, فكانت معظم الإدارات الحكومية تمتلك أصحاب المهن والحرفيين.

بشكل عام استطعت كبح جماح حقدي وإخفاءه, وهو يتحدث معي مظهرا له كذبا سعادتي بهذا, بانتظار ما سأفعله خاصة بعد أن استطاعت زوجتي سرقة قطع من ملابسه الداخلية وجواربه قبل أن تقوم زوجة أخي بغسلها, حتى آخذها معي إلى الساحر خلف الحدود.

وبعد أسبوع اكتملت استعدادتي ونسقت مع أحد المهربين للسفر على أن

يقابلني في أحد الجبال في "الضالع" قرب الحدود ليصطحبني معه, وكنت قد ودعت "أشجاني" في محلي بعد أن اعتذرت عن الحضور إلى منزلها, فجلبت لي الكثير من الأكل والكعك والحلوى لاصطحابها معي في سفري, وبالطبع تظاهرت بقبولها فهي تظن أن اجتياز الحدود نزهة أو رحلة برية مع الأصدقاء, يمكننا معها اصحطاب سلال طعامنا وحاجياتنا, إلا أني سعدت باهتمامها وحرصها علي, ولأنها ليلة وداعية فقد أدركنا الصباح نتجاذب أطراف القبل ملتصقين كتوأمين في رحم أمهما, عاريين من كل شيء إلا من خطيئتنا ولأكن صريحا في هذا, فمنذ تلك الليلة أصبحت "أشجاني" زوجتي, وإن لم نتزوج , وحبيبتي ونحن نحب بعضنا وهذا المهم, فالحب هو زواج المحبين, والأهم من كل ذلك أن رجولتي أسعفتني في تلك الليلة, و"أشجان" أسعدتني.

كانت رحلتي إلى الشمال مرهقة متعبة, مليئة بالخوف والحذر والمخبرين والجواسيس واللصوص وقطاع الطرق والمتصيدين والمزيفين, فلم نكن نعرف من مع من؟ ومن ضد من؟, على جانبي الحدود الجميع يتساوى في هذا وإن كانت جنوبا موحدة بشكل أكثر من الشمال الذي يتصارع فيه اليساريون مع الإسلاميين بشكل يومي, كنا نمر على قرية يسارية وإلى جانبها إسلامية, وهناك تيارات إسلامية تتصارع فيما بينها ثم حين عدنا وجدنا بعضها قد تغيرت, فاليسارية أصبحت إسلامية والعكس صحيح, وإن كان تنامي التيار الإسلامي يتصاعد ولا يتراجع, حيث يملكون المال والنفوذ والفكرة التي يسيطرون بها على النشء, كانت رحلة الجبال صعودا وهبوطا وانزلاقا وعودة مرهقة على من هو مثلي, والليل يلفنا ويعصر جهودنا. السفر ليلا في حالتنا هو الحصن الذي يحمينا وسط

طلقات الرصاص, وقذائف المتحاربين والمتصيدين نراها وهي تصعد في بروج السماء وتهبط في انفجارات ضخمة. كان لكل منا هدف مختلف عن الآخر. عندما تحدثنا كان الجميع يحكي عن سبب اجتيازه الحدود إلا أنا. شعرت بالخزي صراحة من قول السبب الحقيقي, فأخبرتهم أن أخي مصاب بالجنون وأني أرغب بالذهاب إلى شيخ معين لطرد الجن من رأسه, أما البقية فكان منهم من يبحث عن طريق إلى دول مجاورة للعمل, أو للالتحاق ببعض المعسكرات التي تجمع أبناء الجنوب الهاربين من جحيم الاشتراكية إلى أتون الرأسمالية, أو لزيارة أقاربهم خلف الحدود والذين فرقت السياسة بينهم فمنعت تواصلهم وقطعت عرى التقائهم. كان من هؤلاء مراهق صغير لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره , إذ قرر عبور الحدود لرؤية أخته التي تزوجت قبل مولده ولم يرها منذ ذلك الوقت, حيث حجزت الحدود بينهما ومنعت الاختلافات

السياسية كل لقاء وشيك بما أن زوجها ضابط كبير في الجيش الشمالي. كان ذلك الشاب المراهق سعيدا وهو يمني نفسه برؤية شقيقته بعد سنوات من كتابة الرسائل التي كان يرسم من خلال قراءة حروفها شكلها وصوتها وحروفها ولمسة كفها ورائحة قبلتها ودخان قهوتها. أخبرهم بأنه حتى لو مات سيكون سعيدا لأن روحه ستحلق عاليا فوق كل الحواجز والألغام والخلافات لرؤيتها, وهي في طريقها نحو مستقر الأرواح في الخلد.

بمجرد اجتياز مناطق الحدود ونقاط التماس المباشر يصبح الوضع أفضل وأكثر أمانا, وقد منحني المهرب ملابس مستعملة تشبه ملابس السكان المحليين لتلك المناطق, بعد أن طلب مني عدم الحديث وأن أتبعه صامتا, وهكذا سرنا.. حتى وصلنا إلى "رداع", وبعد أن قام المهرب بسؤال بضعة أشخاص عن اسم المشعوذ الساحر, أشاربعضهم خائفا إلى مجموعة من

السيارات كانت تقوم بمهمة توصيل الراغبين بزيارة "الشيخ" كما يسمونه هنا, فأدركنا أنا سنمتنع عن ترديد كلمة المشعوذ من تلك اللحظة وصاعدا, وكان السائق في طريقنا يسألنا مع بقية الركاب عن سبب مجيئنا, بينما كان المهرب يتبرع بالإجابة من تلقاء نفسه مجيبا عن كل سؤال بإجابة تختلف عن سابقاتها وتضادها, وكما يبدو فإن السائق لم يقتنع بالإجابات وهو ينظر إلينا من خلال مرآة السيارة اليابانية ذات الدفع الرباعي. و بعد لحظات من التفحص وهو يقود وجه حديثه لي هذه المرة بشكل مباشر معبرا عن شكوكه بأني لست من أبناء تلك المناطق, فاكتفيت بابتسامة صغيرة دون أن أنطق بكلمة كما طلب مني المهرب, فلربما يكون السائق من أفراد الأمن السياسي في الشطر الشمالي الذين يملأون كل القرى المتناثرة في المناطق الوسطى, إذ تمتليء بالفوضى

والحروب بين القوى العالمية, بينما هي فقيرة منكوبة يملؤها التخلف والجهل واللاشيء بسبب الحروب وتضارب الشعارات.

بعد وصولنا إلى منزل الساحر ونزولنا من السيارة, أخبرني المهرب ــ همسا ــ أن السائق تابع للمشعوذ, وأن مهمته هي معرفة سبب مجيئنا وطلباتنا وعند وصولنا يقوم بإبلاغ المشعوذ مقابل مبلغ من المال سيأخذه مني في نهاية المطاف.

كان المكان مليئا بالفقراء ذوي الثياب الرثة التي لم تستطع الثورة في الشطر الشمالي من تحسين وضعهم منذ عقدين عما كانوا عليه زمن الإمام وفي هذا يقول كارل ماركس:

ــ أثبتت لنا الثورات عبر التاريخ, أن كل شيء قابل للتغيير إلا الإنسان

فلا أدري كيف ستكون الوحدة التي يسعى إليها الحزب؟ وهو يقود الجنوب بكل مقدراته ويسخر لها كل إمكانيات البلاد في حرب السلاح والأيدلوجيا لتحقيق الوحدة, وقبل سنوات قليلة كانت قوات الجنوب تمر من هذه المناطق باتجاه صنعاء لتحقيق الوحدة قسرا وإجبارا, وحسبما كنت أسمعه من الضباط والمسؤولين في "عدن", فإن الشخص الوحيد الذي كان يعارض وحدة اندماجية في قيادات الجنوب الكبرى هو الشخص القادم من الشطر الشمالي, بينما كل القيادات الجنوبية تطالب وتسعى لوحدة فورية يتساوى في هذا القادمون من مناطق قرب الحدود أو الداخلية, فما رأيته هناك من جهل وتخلف وولع بتصديق الخرافات والدجل أثار في نفسي الشكوك حول الوحدة بين الشطرين وتحققها بهذا الشكل, وكنت أود التحدث أكثر عما رأيته من مشاهدات لكني فكرت في

التوقف عن قص حكايتي عند المشعوذ حاليا لأن الحكاية برمتها تؤلمني وتطعنني في صميم رجولتي, ثم أدركت أن ما قلته من حكاياتي وخطاياي كان أفظع بكثير مما فعله المشعوذ معي.

ذلك اللقاء الفظيع الذي لم أكن أحب الحديث عنه لولا مقدار مايراودني فيه من ذكريات مزعجة, حين سلمت الساحر ملابس زوج "أشجان" وملابس أخي, شاهدته وهو يضعها في كيس إلى جانبه في مكان خالٍ وهو يتمتم ببعض العبارات.

كان المشعوذ رجلا عاديا جدا وليس فيه ما يدل على أنه يمارس الدجل والسحر على عكس ما نرى في التلفزيون من أعمال درامية, لتنتهي مهمتنا عندما أذن لنا بالانصراف, وقبل أن أخرج من عنده أبصرت

بالباب قردا ضخما بشعر أسود طويل, وهو يشير لكي أنظر إلى منطقة العانة لديه وهو يحرك يده جيئة وذهابا بحركات متعددة بما يعني البتر, وقد تأكدت من أن مرافقي لم يكن يرى ذلك القرد حين نظرت إليه شزرا وهو يسير إلى جانبي, وحين التفت إلى الساحر قبل خروجنا شاهدته يبتسم ابتسامة ماكرة وهو يطلب مني العودة مرة أخرى مستقبلا, فظننت أنه يقصد زيارته في أعمال أخرى, لكني لم أزره مطلقا بعد تلك الحادثة بينما ظل القرد يأتيني في أوقات متباعدة, ينظر إلي دون حراك أو صوت, مما أثار في نفسي الهلع الدائم والتوجس من الناس بشكل دائم مما أسمعه من وساوس وهلاوس في رأسي, ولم تعد علاقتي الحميمية بأبي الشيطان تفيد شيئا, ولم يكن أمامي إلا الاستمرار في مخططاتي الشيطانية والاستعانة بذكائي ورغباتي.

وبسبب نتائج تلك الزيارة الملعونة بقيت أعاني من ضعف جنسي زاد من قدراتي الجنسية الضعيفة أصلا, كما أن علاقتي بولدي أصبحت متدهورة, ولولا خوفي من "ليلى" لكنت قتلته ربما, فهي التي أبقت علاقتي معه تتراوح إلى هذا الحد, ويبدو أن الساحر أصابني بمزيج من سحره المخصص لزوج "أشجان" مع السحر المخصص لأخي للإضرار بعلاقته مع أولاده, فهل كان الساحر متعمدا؟!, أم أن رائحة ملابسهما اختلطت برائحتي طوال فترة السفر.. لا أدري.. لا أدري.

منذ ذلك اليوم أصبحت مجرد آلة بلا تروس, ومحركا ينقصه الوقود, ظل بلا هيكل يقيمه ويحميه من الشمس, أنا الفحل الهائج.. أصبحت ورقة مهترئة عبثت بها الأنواء وبللتها الخدع وداسها الحقد. أحسست يومها بتيار بارد يسري في داخلي جمدني وأنا راقد, وعندما نهضت أحسست بشيء رطب على يدي وعلى ملاءتي, كان هذا الشيء لزجا وبلا لون,

شيء يشبه السائل المنوي, ليس مني.. أعرف نفسي ومياهي, لحظات مقززة ولطخة مجرمة صرت أحس بها معظم الأيام صباحا عندما أستيقظ على يدي, فأدركت أنها لعنة بليت بها جراء ذهابي إلى المشعوذ.

المهم أني أنجزت مهمتي وعدت عابرا الحدود بنفس الكيفية والصعوبة, ولم أكن أعلم شيئا عن نجاح الخطة من عدمه إلى أن ألتقي مع "أشجاني" التي اتفقت معها على عدم الاتصال وهي ستقوم بمراقبة المحل, فإن رأتني تأتي وإلا تنصرف.

في اليوم التالي ذهبت إلى المحل رغم تعبي وثقل أفكاري وتهيؤاتي, لكن حاجتي لرؤية "أشجاني" يفوق كل احتمال, ومع قرب إغلاق المحل أتت كعادتها بكل بهائها وروعتها وعبقها تبعثر أمامها كل آهاتي, وسعدت

جدا عندما أخبرتني أن زوجها أراد ضربها يوم أمس كعادته كلما غضب منها لسبب تافه, لكنه تراجع بصمت عندما صاحت فوقه, وبقي طوال الليل صامتا ولم يلمسها, وكذلك في الصباح لم يطلب منها إعداد الفطور كما يفعل يوميا, وانصرف دون تناوله وعندما أتى في المساء تناول طعامه صامتا, وتركته حتى يشرب من قارورة الخمر قبل أن تدس له المخدر والمهديء, لتأتي ملقية إياه في سبات عميق.. ليته لا يفيق منه. قمت بإغلاق المحل علينا واحتضانها بكل شوق وحرارة تساوي حرارة "عدن" وتعبر عن لهيبنا أنا و"عدن", وأنا أقبلها في كل جزء من جسدها كأني أكتسب بركة التقبيل لها كصوفي التقى بشيخ طريقته بعد غياب, لكني لم أتجاوز موضوع التقبيل على أية حال, ولم أخطو ــ مرغما ــ صوب منطقة الألغام رغم تقبل "أشجان" للأمر, وتعليلها لما حدث بأنه نتيجة الإرهاق مواساة لي وحفاظا على مشاعري المسفوحة أمام معبدها

العاري.. حينها أحسست بشيء ينقص من جسمي ولم أكن أعي وقتها كنهه.

أصبحت "أشجان" واحة خلفية لي, بعد أن حصلت على الطلاق من زوجها الذي أخبر بعض المقربين منه بأنه أصبح يرى زوجته بوجه كلب أسود عملاق كلما اقترب منها.

كنت آوي إليها كلما أدركت قبح زوجتي وخفت على نفسي من تصرفاتها الشيطانية، فالشياطين تسعد ببعضها, لكن لا يمكن أن تكون هناك ثقة فيما بينها، فكنت أغدق على "أشجاني" بالهدايا وجلسات القات في منزلها الذي كنت أدعو بعض أصدقائي المسؤولين إلى تلك الجلسات، فصرت أستغل هذه الجلسات في دعوة بعض الفتيات اللاتي كانت أشجان تتولى

مسؤوليتهن والإشراف عليهن, مقابل تقديمهن بشكل غير مباشر إلى المسؤولين القرويين الذين وجدوا مغارة علي بابا تفتح أمامهم, لكنها مليئة بالغواني لا بالكنوز, وهم من كان أقصى طموحاتهم أن ينالوا رضى بنات المدينة, يقول أفلاطون:

ــ اللذة سعادة المجانين، والسعادة لذة الحكماء

ولزيادة السيطرة على أشجان فقد تزوجتها بعد إلحاح شديد منها لإسكات جيرانها, كما كانت تخبرني, ولمنح ما نقوم به بعدا طبيعيا وقانونيا رغم أني لم أكن أشبع رغباتها الجنسية إلا فيما ندر، لكن السبب الحقيقي هو أني كنت أطمح لأن آمن غضب المسؤولين مستقبلا لأي سبب، وفي الحقيقة كان المسؤولون يذهبون إلى المنزل حتى في غيابي مستمتعين بجلسات الأنس والرقص, ومازاد عن حده فلا بأس به، وفي تلك

الجلسات كان المسؤولون يأتون بعدد هائل من المنشورات الإشتراكية والتوعية الحزبية, وأرتالا من الصحف الحكومية التي كانت توزع في كل مكان, وكذلك بعض الكتب السوفيتية أو من دول اشتراكية أخرى بما فيها بعض الدول العربية والكثير من الروايات التي كنت أقرأها بنهم شديد، فأصبحت أحفظ كل ما يرد بها عن ظهر قلب، كنت ألتهم كل سطر لدرجة أن المسؤولين كانوا يسخرون من تركي للنساء والاعتكاف على القراءة في تلك الجلسات شبه اليومية، ولا يدركون أني أسيطر عليهم وأجعلهم لعبة بيدي كما يقول شكسبير:

ــ بالنّار يُختبر الذّهب، وبالذّهب تُختبر المرأة، وبالمرأة يختبر الرّجل

مع مرور الوقت أصبحت أمتلك القدرة على استخدام ما قرأته في أحاديثي من عبارات الاشتراكية والشيوعية التي لا تنتهي، بل أني مقتنع أن من

يملك الحد الأدنى من تلك المصطلحات فهو عبقري وخطيب مفوه لكثرتها وتعقيداتها اللغوية والفكرية, بالإضافة إلى أن لها رونقا عجيبا, لذا فأصحاب التوجه الاشتراكي متحدثون بارعون لا يشق لهم غبار. أصبحت ــ كما لاحظتم ــ أضمن أحاديثي حتى التي مع نفسي في خلواتي بالكثير من مقولات الأدباء والسياسيين والمشاهير، وحضرت لقاءات كثيرة في مجالس القات لأدباء ومشاهير عرب ومناضلين كانوا يتناولون القات بكل شراهة وتمتليء بهم مقايل "عدن". معظمهم تناسى "عدن" عند خروجه إلى بلد آخر وكأنها لم تفتح لهم أبوابها العتيقة ذات يوم, وبينما كان أصدقائي المسؤلون منغمسين مع زوجتي "أشجان" وشلتها من الفتيات الجميلات كنت قد بدأت أجني بعض المكاسب التي تأتي بلا طلب.

مع مرور الوقت بدأت في مضايقة أخي والثورة في وجهه لأتفه الأسباب, وهو مالم يتحمله مني فكنا نتعارك كثيرا مؤخرا، وفي أحد الأيام بعد خلاف شديد بيننا قرر أخي الخروج من بيتنا المشترك, والذهاب إلى منزله الذي لم يكتمل بنائه بعد, لكنه كان أفضل من الجلوس معي في منزل واحد كما أخبرني يومها، بينما أنا كنت في قمة الغضب لخروجه من المنزل المستأجر إلى منزله الخاص حتى لو كان خيمة في الصحراء. الحسد والغيرة حينما يتملكان المرء يصبح أعمى عن كل الحقائق ويظل عبدا لهما حتى إن كان أفضل من المحسود، ولو تمعنت في الأمر لعرفت أني أملك منزلين وزوجتين وعملين من خلال تجارتي أو من خلال ليالي "أشجان" الحمراء. وضعي في هذا يشبه ذلك الذي كان لديه جار مشلول بلا يدين أو ساقين, وكان يسمعه وهو يتأوه يوميا جراء ضرب زوجته التي تغار عليه, وقد كان جاره يشعر بالغبطة رغم

الآلام, ورغم وضعه المأساوي, لأنه يستطيع أن يثير غيرة زوجته, بينما هو السليم والمعافى الذي يتمنى أن تكون له علاقة مع جارته أو مع غيرها من النساء, يحسد جاره مبتور الأطراف على قدرته على لفت نظر زوجته, وأن يجعلها تغار عليه بكل هذه القسوة.

لم تكن لدي مشكلة في سرد ذكرياتي أو الحديث عنها بشكل عال في جنبات صدري الجهنمي هذا، لأنني مؤمن بأنا نسير في طريق مكتوب لنا ولا يسعنا الاعتراض عليه أو حتى تغييره؛ فقط نسير عليه بصمت ودون أن نقاوم، كما يقوم مدرب السباحة بتعليم الطفل السباحة بأن يترك جسده للماء والتحرك بهدوء للعبور إلى الطرف الآخر، يقول أفلاطون في هذا الشأن:

ـ قد يكون الناس مخلوقين للسير على طريق العمل، ولكنهم قد لا يكونوا مخلوقين لفهم هذا العمل

نحو اللا عودة

بدأت بتنفيذ الخطوة الثانية وهي خطة السفر والغربة, لكني لن أستخدم الطريقة الشائعة التي يستخدمها أبناء منطقتي الحدودية بالهرب متسللين إلى شمال الوطن أولا, ثم البحث عن وطن المهجر البديل الذي يكون لدى معظمهم , والخيار المفضل هو الجارة الكبرى, فقد جربت السفر متسللا عن طريق الحدود في زيارتي للمشعوذ ولن أكررها مجددا؛ لذا فقد أوعزت إلى "أشجان" أن توطد علاقتها بقيادي معين يتولى قيادة إحدى اللجان الحزبية الهامة, من أجل مساعدتي على استخراج جواز سفر والسفر إلى شمال الوطن بأي ذريعة وبعدها سيكون لكل حادث حديث, لكنني لن أترك الأمر للصدفة أو للوقت المناسب. إن كنت تظن أن هناك

وقتا مناسبا لتبدأ به أي عمل فلن تفعل أي شي، عبارة الوقت المناسب هي ذريعة يخترعها الكسالى ومحدودو العقل، فالوقت المناسب لن يأتي مطلقا وستضيع حياتي كلها وأنا بانتظاره.

وفي نفس الوقت بدأت في تطبيع العلاقات مجددا مع أخي, وهو بشكل عام طيب القلب, ويمكن إقناعه بسهولة بكل ما أريد؛ لذا بعد فترة استطعت إقناعه أن يمنحني نصف الأرض التي يملكها والتي يقع بها حوش منزله لبناء منزلي, وفي الحقيقة لم أبذل الكثير من الجهد فقد أقنعته عن طريق عبارات الأخوة والتكاتف واللمة والعزوة وغيرها من المثاليات التي يصدقها السذج أمثاله, وكان لزوجته "بدرية" دور في هذا على أمل أن يسهم القرب في منزلين متجاورين من تكوين لحمة أسرية، فقام بمنحني نصف الأرض بسعر تافه.. للأمانة, ومع هذا مازلت أطمح للأكثر وفي قلبي مازال هناك غل كبير تجاهه لن يخبو أواره حتى لو

قتلته بيدي، وفي كل مرة كان هو يسبقني بخطوة دون أن يبالي بي وبوجودي, حتى وأنا من كنت ألاحقه وأتتبع خطواته وقد غدوت أنا أكثر ثراء منه, وها أنذا أجهز لمنزل كبير على أحدث طراز إلى جانب منزله المتواضع الشعبي، وكعادتي في كل مرة يساعدني بها كنت أفتعل له المشاكل, فطلبت منه في إحدى المرات أن يتابع العمال عند بنائهم للمنزل بما أن المنزل إلى جواره بحجة انشغالي وبعد موقع البناء عن مكان إقامتي الحالي وأن يقوم بمتابعة العمال, إلا أنه اعتذر لي. أصر على عدم تعطيل عمله وهو الشيء الذي لن يقدر عليه, وبعد شد وجذب بيننا بحضور بعض الأصدقاء والأقارب قمت باستفزازه بالكلام وأنه يغير من نجاحي ومن بنائي لمنزل كبير, فرماني بكوب الشاي في وجهي، وهو التصرف الذي كنت أبحث عنه لإظهاره بمظهر الهمجي الحسود والعدواني, مما ساهم إلى جانب مواقف أخرى عديدة بالإضافة إلى

انتقاصي الدائم منه لدى الآخرين, وثرثرات زوجتي "ليلى" في جلسات النميمة حول أخي وزوجته بتعزيز عزلته وابتعاده.

وبسبب المشاجرة الأخيرة قمت بقطع علاقتي مع أخي, لأني لم أعد بحاجة إليه بعد بناء منزلي العامر إلى جانب منزله الحقير، ورغم أننا متجاوران لكن علاقتنا انقطعت لسنوات طويلة، خلال هذه السنوات قمت بإحضار أخي الذي يصغرني "فضل الله" من القرية والذي كان نسخة مني في كل شيء, إلا أنه كان جبانا وعديم الجرأة لكنه كان يملك من الذكاء الكفاية لكي يفهم الظروف والملابسات التي أعيشها، فكانت علاقته بأخينا الأكبر شبه مقطوعة منذ اليوم الأول ولم يكن يدخل بيته مطلقا رغم أننا متجاوران, وكذلك لم يكن يهتم بأبنائه حتى لا يثير غضبي، فقمت بتشغيله معي في التجارة وجعله يدى اليمنى ريثما يكبر ولدي "سامر", وليته لم يكبر.. بل ليته مات في مهده.

لدى "ليلى" هدف واحد هو زوجة أخي وأبنائه, فلم تكن تتوقف عن التشهير بهم لدى شللها النسائية, أو حتى تحريض أخي المغفل على أبنائه, بما أن المنزلين متجاوران, فكانت دائما ما تذهب مسرعة إلى أخي لكي تشتكي من شقاوة أطفاله على أتفه الأمور, وهي في معظمها أمور عادية، وكلما رأت تفوقهم في الدراسة يجن جنونها فتزيد شكاواها منهم لأخي الذي كان تجنبا للمشاكل يقوم بضرب أبنائه دون أن يعرف الأسباب, ولم أكن بحاجة إلى معرفة الأسباب بدوري, فالسحر العابر للحدود لا يزال يقوم بعمله على أكمل وجه بضرب أولاده طوال الوقت، وكنت دائما ما أسمع زوجتي وهي تصرخ وتولول على أولاده فأكتفي بالابتسامة فقط, وبلغت بها الجرأة حين وجدت "ليلى" انسجاما بين ابنتنا "جميلة" وابن أخي الأصغر "ربيع" الذي يقاربها في السن, كطفلين تجمعهما القرابة إلا أنها اتهمت ابن أخي بأنها رأته وهو يقبل ابنتنا في

فمها, مما أدى لقطيعة جديدة بين الأسرتين استمرت طويلا هذه المرة, فكانت علاقتي مع أخي "حسن" مقطوعة بشكل كامل.

وفي الضفة الأخرى من المدينة وعلى الشط الآخر من الليالي العدنية, تمكنت "أشجان" بعلاقاتها الليلية أن تحصل لي على إذن للسفر إلى شمال الوطن بطريقة رسمية، وفي الحقيقة كان السفر الفردي بطريقة مشروعة إلى شمال الوطن محفوفا بالمخاطر والتحقيقات عند الوصول، بينما كان عبور الحدود أكثر أمانا وتسهيلا دون أي أوراق وثبوتيات, وهذه من مفارقات العلاقة بين شطري الوطن، لكنني قمت بأخذ احتياطاتي مسبقا عبر أحد الأشخاص الذين هربوا إلى شمال الوطن مسبقا, فمنحته بعض الأموال ورسالة شفهية إلى أحد أقاربنا في صنعاء, وفي حقيقة الأمر لم تكن تلك الرسالة سوى اسم أحد الأشخاص الذين استطاع النظام في

"عدن" إرسالهم إلى الشمال للتجسس على الجنوبيين في صنعاء بذريعة الهروب إياها، وبالتالي استطعت تأمين وصولي وطريقي بكل سهولة بعد أن قام النظام في الشمال بالقبض على ذلك الجاسوس، فكيف إن علمتم أن ذلك الجاسوس كان صديق عمري منذ الطفولة.

لا مكان للرحمة والعواطف في قلبي، هذا القلب الشيطاني قُد من حجر صوان يخلو من أي أحاسيس, وأي محاولة للاحتكاك به سيشتعل ولن يحرق إلا ما حوله.

قام أقاربي في صنعاء باستقبالي على أكمل وجه، ولم أبخل عليهم بالهدايا والأعطيات من العسل والبن والبخور والحلوى العدنية, على عكس بقية أقاربنا الذين كانوا يصلون إليهم حفاة عراة متسللين عبر

الحدود.

إذا أردت أن تصف مدينة بحب, فصفها كشخص, و"صنعاء" هي امرأة غارقة في الفتنة, ريح الشتاء الجافة ودخانها المنبعث من أفواه الناس وعبق الياجور الأحمر الداكن, وشخير السيارات وانعكاسات القمريات المووهة, والإعلانات الرديئة في الزاويا الحزينة, وسيقان الرجال النحيلة من فقر عتيق لم تكفِ سنوات الثورة حتى يسدلوا عليها ستائر القماش المرتخي, "صنعاء" لوحة من الألوان المتباينة عبر أطوال وعروض مترامية الأطراف مازال بإمكانها أن تمتد حتى تلتصق بأقدام الجبال الشاهقة المحيطة بها. في "صنعاء" شعرت بالحزن والوحدة والشوق إلى المجهول, لديها نصيبها الخاص من المشاكل والفوضى, لكن أهلها يعتبرونها مميزات لديهم, هي فاتنة تجيد تحويل عيوبها لعرضها كمميزات, لكنها رغم كل خبرتها العريقة في المدنية تشعرك بأنها قرية

كبيرة, قرية توشك أن تتحول إلى مدينة أخرى لا علاقة لها بماضيها.

في صنعاء قمت باستخراج جواز سفر شمالي لكي أتمكن من السفر إلى باقي الدول بمعاونة أحد أقاربي الذي كان متخصصا في هذا العمل، فالنظام في "عدن" لم يترك لنا الكثير من الأصدقاء خارج مربع الدول الشيوعية التي تدور في فلك الاتحاد السوفييتي, وبعد شهرين من المكوث في "صنعاء" غادرت لأول مرة خارج حدود وطني الكبير بشطريه، إلى دولة مجاورة وجهت رحلتي, وتحديدا إلى مينائها العامر مدينة البحر والشمس، المدينة التي ستقع بحبها منذ الوهلة الأولى وهي تشبه "عدن" في هذه الحالة على عكس باقي المدن التي لن تحبها إلا بعد فترات قد تطول أو تقصر أو قد لا تأتي مطلقا، لكن تلك المدينة كانت مختلفة بالفعل، أبهرني فيها حجم الجاليات وتنوعها من أفريقيا وآسيا

والدول العربية. فجأة ستجد نفسك تسمع عشرات اللغات واللهجات واللكنات في يوم واحد. كانت صورة حديثة من مدينتي حينما جئت إليها للمرة الأولى قبل خمسة عشر عاما، أحببتها كأنها وطني، وهذه ميزة ليس من السهل أن تمنحها لمدينة إلا إن كانت تستحق ذلك ، لكن هذا الحب لم يمنعني من البحث عن مصلحتي التي جئت من أجلها وهي الثراء بأسرع وقت، فقمت بمشاركة أقاربي في بعض الأعمال طالما أن المال في جيبي دون أن أرتبط بأي عمل، أحب أن أكون حرا كنسر عملاق يطير في السماء بلا توقف ولا يهبط إلا على فريسة دسمة.

وفي هذه المدينة قمت بإجراء بعض التحسينات على شكلي ومنها أسناني البارزة وتعديل أنفي المعوج, بالإضافة إلى قص شعري الذي كان سمة بارزة لي طوال أربعة عقود من عمري، ولكن للأسف الشديد أصبح لقب "الخنفس" ملتصقا بي للأبد ولكنه كان أهون من اللقب الذي سيطلقه علي

القادمون الجدد إلى ملعب الأيدلوجيا في الثمانينات وما بعدها من خلال الدين ولعبة التطرف.

هناك بدأت رياح الثمانينات تترى على ربوع البشرية حاملة معها وهج شعارات جديدة ما كنا نعرفها أو نألفها سابقا، شعارات الدين والصحوة الإسلامية، فانشطرت كل أسرة إلى قسمين وكل صديقين إلى خصمين، وهذا ماحدث بيني وبين بعض شركائي وأقاربي الذين هم من لداتي, وعشنا معا لسنوات طويلة فبدأت بيننا العداوة والبغضاء التي استهلكتني لسنوات طويلة ورغم استمرار الشراكة إلا أن العلاقة توقفت تماما.

خضنا معا سجالات طويلة حول الدين والحلال والحرام في كل مرة كنت أذهب بها إلى إلى الغربة، أما في "عدن" فكان الوضع في مأمن منهم، وبالطبع لم أنسَ أن أقدم أسماءهم إلى أجهزة الأمن الرسمية في "عدن"

واحدا واحدا, في كل عودة لي إلى الوطن ,كأعداء يهدفون إلى قلب نظام الحكم الإشتراكي في جنوب الوطن. تغيرت العلاقات بيننا في الغربة ولم يعد مرحبا بي في بيوتهم كالسابق, حين كنا نجلس جميعا أقارب وأصدقاء في جلسات أسرية ودودة وأخوية، وكان أقسى ماحدث هو قطيعتي مع ابن عمي وشريكي وصديقي وكاتم أسراري "علي " وزوج أختي الذي اختار طريق التشدد الديني، ونتيجة لموقفي المتشدد المقابل له فقد انقطعت علاقتي به وبأختي تماما لأكثر من عقدين رغم أننا كنا نسكن في نفس الشارع في الغربة, لتضاف إلى علاقتي المتدهورة مع أخي "حسن", وهو الشيء الذي لم أكن لأقع به عادة لولا تهور زوجتي "ليلى", فكلما كانت علاقتي تسوء مع أحد إخوتي أو أقاربي أفتح بابا لي مع آخر, وفي الحقيقة كان هذا يجري مع الجميع,وليس فقط مع إخوتي, فكنت أحاول جاهدا ألا أقوم بتكويم المشاكل لدي.

رافق رياح التشدد الديني عواصف المخدرات في نفس الفترة حيث كانت بعبع الثمانيات الشرس, على عكس التشدد الديني الذي كان يدور في إطار الجهود الفردية في بداياته، وفي الحقيقة استغللت إقبال الشباب على المخدرات في دخول هذا المجال رغم المخاوف الشديدة وقوة القبضة الأمنية في بلد الغربة، لكني استعنت كعادتي ببعض النساء اللاتي كنت أعرفهن سابقا وفي بعض المرات بزوجتي "ليلى" التي كانت ترافقني في بعض زياراتي للغربة، وفي إحدى المرات كاد الأمر أن ينتهي بالقبض علي وبحوزتي كيس صغير بحجم قبضة اليد الصغيرة من الهيروين كنت على وشك تسليمه إلى عميل, لكنني قمت بابتلاع الكيس كاملا كما هو، وكاد الأمر أن ينتهي بكارثة كبرى حين أصبت بآلام شديدة في بطني كدت أن أفارق معها الحياة, لولا مساعدة شركائي في بيع المخدرات حينما استطاعوا إدخالي بطريقة غير مشروعة وسرية إلى أحد

المستوصفات الطبية في منطقة نائية يعمل بها طبيب من جنسية عربية، استطاع أن يستخرج الكيس بعملية جراحية في بطني في وضع غير طبيعي لا يصلح حتى لقص أظفار قطة، وبعد مرور عدة أيام استدعى الأمر تدخلا جراحيا آخر بمعاونة طبيب آخر جلبه أحدهم من المدينة خصيصا بعد دفع مبلغ مالي ضخم وبشكل سري لتنظيف معدتي، وكان الأمر خطيرا لأن جراح الخيوط الأولى لم تلتئم بعد، ومع العمليات الجديدة أصبح شكل بطني مشوها فبدلا من أن تكون جراح العملية مجرد آثار عادية لغرز الخيوط, أصبحت الآن كأنها ثعابين مرسومة على بطني ساهم في كبر حجمها انتفاخ كرشي من سمنتي المفرطة بسبب الأدوية التي أخذتها، وقد ظللت أعاني من هذه العمليات لعدة أشهر دون حراك مطلقا, مع آلام شديدة ما كنت أحسبني سأحيا بعدها مطلقا, ولولا وجود زوجتي "ليلى" إلى جواري لكانت حالتي أسوأ وأكثر فظاعة فهي إلى

جانب رعايتي والاهتمام بي, كانت تقوم بتوزيع الحبوب المخدرة لتعويض ما خسرناه من تكاليف العمليات ومصاريف المعيشة، فكانت تصطحب ابنتي "جميلة" وولدي "سامر" معها مما ساعدها على إنجاز العمل بصورة ممتازة تفوقت به علي, واستطاعت أن تجني أموالا ضخمة من عملها هذا لكنه بطبيعة الحال لم يكن دون مقابل, فقد فضلت البقاء في بلد الاغتراب وعدم العودة إلى الوطن مطلقا, وحصلت أيضا على أرتال من الذهب الذي ترتديه كله في لقاءاتها مع قريباتنا وصديقاتها, حتى أصبحت هي مضرب المثل ومستقر الحسد، فزوجة "الخنفس" أصبحت زعيمة النساء تجمع حولها بعض النساء الباحثات عن المصلحة والمتسلقات من أجل المال وشهوة النميمة، ومع مرور الوقت أدركت أن لدي شيطانان يوسوسان لي هنا شيطاني الأبوي وشيطان "ليلى", أو بالأحرى يصبحون ثلاثة معها هي نفسها التي لم تكن تعترض على أي

أفكار شيطانية إن لم تكن هي من تدفعني لذلك, وكأن إبليس أصبح يثق بها أكثر مني فجعلها هي لسان حاله لدرجة أني أصبحت أرى "أشجان" ملاكا بجناحين بيضاوين.

الديوث

عند عودتي الأخيرة إلى "عدن" مرورا بصنعاء بجواز سفري الجنوبي طبعا، كان هناك مسؤول كبير بانتظاري على الحدود منعا لمصادرة جهاز الفيديو والأشرطة التي معي, فالأمن لدينا لم يكن يملك القدرة على الفهم ومواكبة الزمن فلا يزالون يعيشون بعقلية القرية القديمة، وبالطبع لم تكن مساعدته مجانية فقد أحضرت له ساعة روليكس ذهبية يسيل لها لعاب الجميع بلا استثناء آنذاك, فبمجرد رؤية الساعات الصقيلة تنهار أكبر الرتب وتنحني كل البدلات الرسمية لي، وبالطبع وضعت جهاز الفيديو في منزل أشجان، منزل الأنس والفرفشة ولا بأس ببعض التسلية عبر الأشرطة الساخنة الخاصة التي جلبتها معي سرا من "صنعاء", بما

أن الدخول مؤمن لي. كان لتلك الأشرطة مفعول سحري يفوق حتى ساعات الروليكس وقوارير الفودكا ورزم الأموال وأجساد النساء, ورغم هذا كنا على وشك أن يكشف أمرنا من قبل بعض الأفراد الذي يمثلون بعض المعسكرات المتناقضة والمتداخلة الصلاحيات والولاءات والمناطق والقبيلة في "عدن", لولا تدخل نديم الليل القيادي البارز, وهو أحد مرتادي منزل "أشجان"الذي استطاع أن يبعد الأنظار عني بخطبة ثورية حماسية عن الوحدة والإشتراكية والبروليتاريا والقضاء على الاستعمار في نفس جلسة الاجتماع, رغم أن "بريطانيا" خرجت منذ حوالي عقدين من الزمن, وكان هذا يضحكني في أعماقي دون أن أجرؤ حتى على إظهاره حتى من خلال ومضة عيني، أما تلك الفيديوهات فكان الجميع يتسمر بالساعات يستجيبون خلالها لكل طلبات "أشجان" وزميلاتها، فلا شيء يجعل الإنسان كالعبد المطيع أكثر من الشهوة والإدمان، فيأتي

بعض المسؤولين راجين مني بخضوع أن يأخذوا جهاز الفيديو إلى منازلهم مع بعض الأشرطة ليلة واحدة، وكنت أستغرب من حالة الخنوع والذل التي يظهرونها لي, وهم من يظهرون على شاشات التلفاز أو تتقافز نبرات أصواتهم المتشنجة من المذياع لساعات طويلة وهم يهددون دول الجوار ودول العالم البرجوازية, بينما هم الآن تحت أقدامي كالعبيد لاستعارة جهاز صغير يشبعون به شهواتهم مع نسائهم أو خليلاتهم، يقول الرفيق لينين:

ــ يجب على القائد السياسي الذي يرغب في أن يكون مفيدًا للبروليتاريا الثورية أن يكون قادرًا على التمييز بين الحالات التوفيقية التي لا يمكن تبريرها والتي هي تعبير عن الانتهازية والخيانة

وسأعترف لكم بأن بعض العبارات الاشتراكية التي يكررها القادة والمسؤلون لا أفهم معناها أو أعي جدوى تضمينها في أحاديثي، لكن بما أنها صادرة من منبع إشتراكي فلن يعترض أحد, وهكذا بدأت أسرد الكثير من مقولات ماركس ولينين وستالين وبريجنيف وأنجلز وجيفارا وتيتو وماو تسي تونغ وجمال عبدالناصر وكاسترو وغاندي وغيرهم، وأحيانا كنت أخترع بعض المقولات من تلقاء نفسي ولم يكن أحد يجرؤ على الاعتراض أو تكذيبي وهكذا كان الجميع يفعل ذات الشيء.

كلما نظرت إلى آثار العملية في بطني شعرت بالخوف، وفرحت كثيرا لنجاتي، كان منظر آثار العمليات بشعا واتساع الجراحات مخيف جدا لي فكيف لمن يشاهدها. هناك ثلاث جراحات في بطني وعرض الواحدة أكثر

من بنانتين بأطوال مختلفة بسبب فتحها مرتين قبل أن تلتئم, ولو كان الأمر ممكنا لقمت بعمليات تجميل تشبه تلك التي فعلتها بأسناني وأنفي وبشرتي، فمثلي يجب أن يكون مثاليا في شكله وهندامه لأن الناس تتأثر بالشكل واللسان ولا يهمها الجوهر، حيث تحب من يكذب عليها لا من يصارحها، لكن هذا لا يعني أن أتساهل مع من لا أحبهم، يجب أن يخشى مني الجميع ومن سطوتي وغضبي ولساني الذي يطلق الحمم.

في أحد صباحات "عدن" الشتائية الدافئة وبينما كنت في منزل أشجان بعد سهرة حمراء رفقة بعض القياديين وصديقاتهم، نهضنا على أصوات القذائف والانفجارات التي تصم الآذان في سماء "عدن"، وبعد محاولات عديدة لمعرفة الأمر علمنا من جيراننا عبر النوافذ أن الحرب اشتعلت بين رفاق الثورة والسلطة, وأن الرئيس قام بتصفية كل القادة، وأن المعسكرات انقسمت فيما بينها على أساس مناطقي وجهوي عنصري، هكذا بكل بساطة حدث الأمر، بعد سنوات من الكذب والخداع باسم الثورة والأيدلوجيا والإشتراكية العلمية ومباديء النضال السامية, ماتت الفكرة وقد تناسوا ما قاله الزعيم فيدل كاسترو ذات يوم وهو يخطب في الناس:

ــ الأفكار لا تحتاج إلى الأسلحة

لأن الأفكار أقوى وأصدق لكن من تولى الأمر كاذبون ومزيفون، هم في حقيقة الأمر مثلي يتظاهرون بأنهم ثوار وأصحاب أفكار تقدمية، بينما نحن نغرق ونذوي. فجأة تذكرت كيف تعيش دول الجوار وكيف يبنون أوطانهم ويعيشون في رفاهية وتطور بلا صراخ وبلا شعارات وفذلكات, بينما نحن مازلنا نعيش على أطلال إمبراطورية إليزابيث الثانية التي دمروها، حاولت بكل ما أملك أن أطمئن زوجتي "ليلى" علي لكن لا وسيلة للتواصل بين عدن وبلد الاغتراب من خلال الهاتف, وفي الحقيقة لم يكن أحد يجرؤ على الخروج في هذا الجو المكهرب وأخبار القتل والتصفيات تصلنا تباعا, ولم أكن أعلم كيف تنتشر الإشاعات بهذا الشكل، كيف تصل الأخبار إلى كل منزل رغم أن الجميع في منازلهم ولم يكن يتجول في الشوارع سوى الجنود والدبابات والمدرعات. يجب أن أدرس طريقة

انتشار الشائعات وانتقال الأخبار، ستفيدني مستقبلا وأن تكون لي عيون في كل مكان أتواجد به أو تكون لي مصلحة فيه أو أقارب.

سمعنا أن النساء والأطفال يركضون في كل الاتجاهات, يبحثون عن مأوى, ويهربون من رياح الحرب التي كانت تقتلع كل من يقف في وجهها؛ كانت أمواج الرعب تنتفل من شخص لآخر في البيوت؛ العائلات تتجمع في أركان منازلها, ويختبئون تحت الأسطح أو بين الجدران, تمزق السكون وتعلن عن بداية النهاية.

في الأسواق حيث كان الصخب يعلو بين الباعة والمشترين, سادت الفوضى والذعر, الناس كانوا يفرون إلى أي مكان آمن, يحملون ما أستطاعوا من مؤن وأدوية, ويخشون ألا يعودوا إلى بيوتهم؛ البعض جثم في زاويا الشوارع الآمنة والبعيدة عن سير المعارك الأخوية, يراقب

الأحداث بنظرات مشلولة, وكلما اقتربت أصوات المعارك تزايد شعورنا بالعجز والهلع.

عشنا أيامًا عصيبة أنا و"أشجان" في المنزل وحدنا وقد نفد منا الطعام الذي كان الحصول عليه قبل الحرب متعبا، فلا توجد محلات بجوارنا أصلا، وأصبح الجيران يعينون بعضهم بعضا, ومن يمتلك شيئا يتقاسمه مع الآخرين من خلال النوافذ فلم يكن ممكنا الخروج في ظل عدم معرفة العدو, فلا نعرف عدونا من صديقنا, كلاهما يرتديان نفس الملابس ويتحدثان بنفس الشعارات وينطلقان من نفس المعسكرات. لا شيئ أسوأ من أن تجهل عدوك إلا أن تخشى صديقك، وهذا أسوأ مافي الحروب الأهلية حين لا تعرف من يريد قتلك. بقينا في بيوتنا؛ حيث كان الظلام يغرقنا فننغمس في وحشته, ولا أحد يعرف متى ستنتهي المعركة, وفي اليوم التالي يذوب الأمل مثل الشمع في خيوط الحزن التي كانت تغلف

أجواء المدينة. كانت الأرواح تتناثر وتغرق في الخوف, وكلما تمهلت المعركة قليلا, كانت أصوات النساء تتعالى بالدعاء, والأطفال يختبئون تحت الأغطية, عسى أن تمر العاصفة دون أن تصيبهم.

في نهاية المطاف أخبروني أن الرئيس وزمرته هربوا إلى شمال الوطن, بعد أيام من الصراع والقتل بينما بقي أنصار القادة الذين قتلوا في اليوم الأول مع أبناء مناطقهم، انتصرت المناطقية بطبيعة الحال وفشلت الثورة. هذه الحقيقة التي توصل إليها الزعيم فيدل كاسترو ذات يوم حين قال:

ــ بدأت ثورة مع اثنين وثمانين رجلاً. إذا اضطررت إلى فعل ذلك مرة أخرى ، فسأفعل ذلك بعشرة أو خمسة عشرة رجل وبإيمان مطلق. لا يهم كم أنت صغير إذا كان لديك إيمان وخطة عمل

هو يعترف بفشل الثورة التي قام بها بأسلوب مخادع لأنه وثق بقادة دخلاء ومزيفين، وهذا ماحدث في بلادنا، بدأ التلفزيون المحلي يعلن بأنه سيعرض كل الحقائق على التلفزيون مع مشاهد من الأحداث ولقاءات مع الجنود وصور للضحايا، وبطبيعة الحال تسمرنا أمام التلفاز لساعات ننتظر ما سيحدث وأثناء ذلك خطرت لي فكرة جهنمية في تسجيل ما سيعرض على جهاز الفيديو وبيعه خارج الوطن. سوف أجني ثروة طائلة من هذا العمل فهناك دول بأكملها ستدفع الكثير من الأموال، وبسرعة أحضرت أشرطة الأفلام التي كان يتسلى بها ندمائي القادة في خلواتهم الحمراء، وبدأت بتسجيل كل ما تم عرضه على التلفزيون، كانت مشاهد القتلى في الشوارع بعد أيام من اشتعال الحرب مؤلمة وقاسية، ومازالت أعمدة الدخان تتصاعد والجميع يتحدث عن الانتصار.. انتصار الثورة

والاشتراكية والحرية والتقدمية في الوقت الذي كان يرفع به المنهزم نفس الشعارات والأفكار، وكانوا حريصين على التحدث عن رئيس الحزب الذي نجى من المجزرة وسوف يعود يوما ما كطائر العنقاء الذي هب من بين الرماد بكل عنفوانه, رغم أن رئيس الحزب هذا كادوا أن يفتكوا به قبل سنوات لولا تدخل "روسيا" لانقاذه وسحبه إلى "موسكو" قبل أن يجلبه رفاقه مجددا في لعبة التوازنات السياسية.

أكثر ما شدني في اللقطات التلفزيونية التي سجلتها هو ظهور أحد الجنود المعدمين متحدثا وبيده ساعة رولكس ذهبية لن يستطيع أن يتملكها طوال حياته، ربما سرقها من أحد الضحايا أو من منزل أحد الخصوم الفارين, يبدو أن الأمر سيشهد متسلقين جدد والمزيد من الأدعياء واللصوص، وبعد انتهاء تسجيلي لكل ما تم بثه قمت بإخفاء الأشرطة في

مكان أمين, وطلبت من أخي الأصغر أن يقوم بتفريغ كل محتويات المحل وتحصيل الديون استعدادا لبدء المرحلة القادمة من مخططاتي، فكان لزاما علي السفر إلى شمال الوطن بصورة عاجلة لبيع الأشرطة, والمشترون كثر بحجم دول وكلهم متلهف لمشاهدة ماتحويه، لكن علي البحث عن جهات تشتريها وتدفع مقدما دون الحاجة لبيعه على الأفراد، لذا فإني بعد استقرار الأوضاع قررت اصطحاب "أشجان" معي للسفر مستعينا بها في إخفاء الأشرطة.

لم أغادر "عدن" هذه المرة حتى شاهدت الرفاق المنتصرين يمحون رسومات المنهزمين ويمزقون صورهم, ويرسمون صور القادة الذين رحلوا في حرب الرفاق في عملية تتكرر بلا انقطاع منذ عقدين من الزمن في "عدن".

بالكاد نجونا هذه المرة على الحدود بين الشطرين حيث كان الجنود في قمة الحذر والترقب, إثر ما وقع من أحداث وصراعات في كل المعسكرات قتل بها الجنود زملاءهم وأصدقاءهم, فمن الطبيعي بعد الحرب أن يكون الجميع متوترا ومتأهبا, سيما وأن القادمين الجدد لا يزالون مشبعين بروح المبادئ والمثاليات التي ستزول مع معاشرة السلطة والمسؤولية وانقشاع الغيوم التي كانت تغلف أنظارهم وتمنعهم من رؤية الحقيقة، وفي "صنعاء" قمت بنسخ مالدي من أشرطة إلى نسخ متعددة, وبيعها في "صنعاء" على سفارات دول وعلى شركات الفيديو والجهات السياسية المهتمة, حين استطعت إقناع الجميع أنها النسخة الوحيدة، وحملت باقي النسخ إلى الغربة حيث أقيم وقمت ببيعها على جهات أخرى, وكذلك على المهتمين من المغتربين الذين كان يهمهم مشاهدة ماجرى من أحداث؛ فجنيت من هذه الخطوة أموالا طائلة جعلتني أكثر ثراء, بالإضافة إلى

أرباحي من شراكاتي مع أقاربي هناك والذين أقنعتهم بأن مشروعنا في "عدن" تم نهبه أثناء الحرب وأن بعض العملاء قد مات أو هرب ولم يكن باستطاعتنا الاستمرار, وفي تلك الزيارة تعمقت خلافاتي مع أقاربي ومعارفي المتشددين دينيا وأصبحت بالنسبة إليهم العدو رقم واحد، لكنهم في نفس الوقت يسددون لي أرباحي أولا بأول, رغم أني سرقتهم في عملنا التجاري في عدن.

كانت الأمور تتحسن في الغربة اقتصاديا, لكنها في الوطن تذوي, بل كان الوطن هو من يموت وليس الاقتصاد فقط، وهكذا كان علي أن أهتم بتطوير أعمالي في الغربة دون أن أترك أشغالي وعلاقاتي مع السلطة في "عدن" التي لولاها لما استطعت أن أجني هذه الأموال، فالاقتراب من السلطة يمنح القدرة على الثراء السريع بأقل مجهود من خلال بعض الهدايا البسيطة والعلاقات الخاصة، لكن في نفس الوقت فالوضع العام

في الوطن لا يطمئن رغم أن الأوضاع متشابهة والعقول واحدة لكن النوايا مختلفة فأصبح وطني يذوي وكما قال الأديب الكبير "رسول حمزاتوف":

ــ إبرة واحدة تكفي لخياطة ثوب العرس والكفن

قررت أن أطلب من أخي الأصغر "فضل" تصفية كل أعمالنا التجارية في عدن، وأن يأتي إلى الغربة كي نبدأ مشروعنا التجاري الخاص واخترت مجال التجارة في الذهب في منطقة نائية فهي غطاء جيد، فالمناطق النائية في أي بلد نامي فرصة مضمونة الربح وكسب العلاقات وقيودا أقل من الدولة التي ستشجع مثل هذه المشاريع، وهكذا بدأت سلسلة مشاريعي التي كنت شريكا فيها دون أي ارتباط مني كما تعودت دوما، أما "أشجان" فاستطاعت نسج علاقاتها مع القادمين الجدد للسلطة في "عدن", لتوسيع شبكتنا ذات العلاقة الخاصة والمتعددة من خلال اختيار

فتيات ذات طبيعة خاصة, وفق مبدأي القديم باختيار فتيات لا يملكن أية علاقات أسرية معقدة في المدينة, حتى يتحركن بحرية بالإضافة لسهولة السيطرة عليهن, والحروب كفيلة بتوليد عشرات الفتيات بلا أقارب أو أصول، وهكذا أصبحنا نملك الكثير من المسؤولين الجدد, والكثير من النفوذ مع بعض بوادر الانفتاح الاقتصادي, لكن ذلك لم يواكبه عقول مبتكرة ومنفتحة فظلت الأمور كما هي عليه, وأصبحت البلاد بعد الحرب تذوي وتضعف من كل النواحي, فالأفكار هي نفسها لم تتغير وإن تغيرت الوجوه، وفي كل مرة تذوي كان الصراخ الثوري والإيدلوجي يزيد, لدرجة أن عامة الناس كانوا يظنون بأننا نعيش في دولة عظمى وأن دول الجوار تعيش في رعب من قوة جيشنا، وتلك كانت من أقسى المفارقات وأكثرها عبثية، لأن تلك الأفكار مع غيرها من الشعارات والأكاذيب متغلغلة في عمق المجتمع حتى لدى من يختلف مع النظام في

قرارة نفسه. كانوا يملكون كيانات ولجانا عنقودية في كل مدينة ومنطقة وقرية وأسرة, مهمتها هي التثقيف الثوري وقراءة الصحف الرسمية والكتيبات المترجمة عن أهمية التوجه الإشتراكي والتقدمي وأننا بلد متطور وقوي ينعم بالرخاء والأمن والنظام, بينما هي في الحقيقة غسيل مخ مركز, أو تقذير العقول بالتفاهات.

فِي تلك الفترة وصلت رياح التشدد الديني إلى بلادنا تحت تأثير الوهج الجهادي في أفغانستان, فبدأت بعض النشاطات الدينية في قريتي من قبل أحد أقاربي ويدعى "تاجي" الذي كان يجمع حوله الشباب وصغار السن ويقوم بتحفيظهم القرآن وتعاليم الدين وفق منظور متطرف, والأدهى من ذلك أن أخي الأصغر "عاقل" كان من بينهم وهو ما لن أقبل به ولن أسمح بحدوثه مطلقا, وأنا من كنت أعوله مع كامل الأسرة, واليوم يزرعونه

متطرفا في أسرتي وأن يكون لي عدو آخر في أسرتي.. إيمانا بما قاله الزعيم ستالين:

ــ نحن لا نسمح لهم بأن يكون لديهم أفكار , فلماذا نسمح لهم بالحصول على البنادق؟

هؤلاء الأوغاد.. أفكارهم المتطرفة هي أكبر من أي بندقية، إنهم يحاصروننا وينتشرون في كل مكان، وحتى أميت هذه الأفكار في القرية قمت بكتابة عشرات التقارير عن قريبي "تاجي" للمسؤولين وأجهزة الأمن، وجعلت "أشجان" وعضوات شبكتها هن الأخريات يقمن بالأمر نفسه في جلساتهن الخاصة مع المسؤولين كلا على حدة، وهو ما نجحت به في نهاية المطاف حين تم اعتقاله عدة مرات في سجون الأمن في منطقتي، ومنعه من القيام بنشاطاته في تسميم العقول، وفي كل مرة كان

يعود إلى نشاطاته كنت أبعث بتقاريري وبمناشداتي لدرجة أني طلبت منهم تعذيبه وقتله إن اضطرهم الأمر كذلك، وفي نهاية المطاف أدرك هو استحالة البقاء في القرية فهرب إلى شمال الوطن, لكن بعد أن زرع بذرة التطرف في عقول أولئك الأطفال الذين كانوا مشكلة كبرى لسنوات طويلة ظلت تتدحرج ككرة ثلج صغيرة حتى أصبحت بحجم قرية، وقد حاولت ومرارا وتكرارا أن يترك أخي هذه الأفكار التي عشعشت في رأسه كبومة سوداء, لكنه كان يأبي الانصياع لي ويأبى الخروج من القرية، وكانت غلطتي أني تركته على أمل أن يكبر قليلا فتتغير أفكاره وتنهار مشاريعهم في رأسه, وإلا لكنت قتلته وهو في طور التبرعم الديني المتطرف, ولم أكن أدرك أن الوطن كله سيتغير وينهار النظام الذي عشت عمري كله وأنا أحاول فهمه والاستفادة منه, فقد قامت الوحدة بين شطري الوطن فجأة دون أي مقدمات ليهاجر من هاجر من القادة إلى شمال الوطن في

رحلة جماعية, ويبقى القلة حتى أصبحت "عدن" فجأة مجرد مدينة كبيرة بعد أن كانت هي الدولة وهي كل الجنوب، فالدولة في الجنوب خارج "عدن" مجرد شعارات ومبنى للأمن ومدرسة ومذياع والكثير من كتبة التقارير الأمنية في كل قرية.

في تلك الفترة التقيت بأبي إبليس مجددا ولم أعد أتذكر للمرة كم كانت؟!, فقد التقينا كثيرا لكنه في هذه المرة طرق الباب علي, وبعد أن فتحت له بادرني قائلا بود:

ـ أهلا.. كيف أمورك

ـ ..

ـ أغلق الباب.. كلبي "سربروس" في الخارج ولن يسرك دخوله

ـ أهلا.. كنت مرتبكا.. مر وقت طويل لم تزرني

ـ هذه الأوقات مهمة.. أنا أجهز للملاحم القادمة التي ستعبث بالبشر وتغير تركيبتهم

ـ أكثر مما نحن فيه

ـ ما يجري الآن مجرد ألعاب نارية مقابل تلك التي ستشهدها, لكني مازلت سأحتاج لبعض الوقت

ـ خمس سنوات؟!

ـ الوقت لدينا مختلف عما هو لديكم.. وقتنا يمشي باللحظات لكنها بالنسبة لكم عشرات الأعوام وربما القرون

كان يسير إلى داخل الغرفة وأنا أسأله:

ــ كيف تمكنت من ضم هؤلاء المتشددين إليك بينما هم في الحقيقة معادون لك؟

أخذ بالضحك قليلا وهو يقول:

ــ هل هم مسلمون حقيقيون؟

ــ هم أشبه بالدمامل التي تصيب أجسامنا؟

كان يضحك وأنا أسأله:

ــ كيف تجعل الناس تصدقهم وتؤمن بهم بينما هم متناقضون في أفعالهم؟!

أمسك بكتفي وهو يقول:

ــ يقول بي تي بارنوم بذكاء:

" هناك مغفل يولد كل دقيقة". لقد كان يقصد هؤلاء الذين يصدقون الدجالين في كل دين, ومنهم هؤلاء الذين تقصدهم مع أن دينهم يحذرهم من الدجالين والوسطاء بينهم وبين الله.. وسطاء يمارسون الجنس بشهوة كبرى.

ــ أنت أيضا تحب تضمين كلامك بمقولات الأدباء والمفكرين والساسة, يبدو أنك مثلي أيضا تواكب المتغيرات والظروف حينما ضمنت كلامك بمقولة لأمريكي..

ــ أمريكا هي سيدة العالم ومسرحي المفضل, ثم إن المقولات التي تأتي على خاطرك .. مصدرها أنا

كان يقترب بوجهه مني وحين أصبحت عيناه أمام عيني قال لي:

ــ أنت ولدي, وما تفعله مع أقاربك ليس إلا تمارين لك. أنا أعدك لما هو أخطر من هذا كله

تذكرت تلك القشعريرة المتثلجة التي سرت في جسدي عند لقائنا الأول في قعطبة وأنا أشاهد عينيه المطفأتين من أي ضوء, لكني تداركت أمري وأنا أقول له:

ــ لماذا تبقى علاقتي بولدي سيئة طالما أني ولدك؟

نهض من مكانه وهو يقول:

ــ لا علاقة لي بكل أفعال البشر.. ابحث عن السبب, لكن الذي من فعلي سأتكفل به.. كل أولئك الذين يعادونك باسم الدين سأجعلهم يكشطون لحاهم ويبحثون عن صداقتك وخطب ودك

ــ حسنا.. أنا محرج, أود أن أطلب منك شيئا

ــ تفضل

ــ كما تعلم لقد أصبت في رجولتي بعد زيارتي للمشعوذ من أجل "أشجان" وأ..

قاطعه بحزم قائلا:

ــ لا أتدخل في القدريات وفي أفعال البشر

ثم خرج من الباب دون أن يفتحه وفي الحقيقة لم أكن أنظر إليه في تلك اللحظة, فقد كنت أظنه سيفتحه, وبعدما خرج سمعت صوت نباح مكتوم مخلوط بفحيح غريب. وهو نفس الصوت الذي كنت أسمعه دائما, فأدركت أن أبي أبليس قريب مني بشكل مستمر. حوار غريب جدا حدث بيننا, لم يكن يرد على استفساراتي بشكل واضح, كان يبدو جليا مقدار أنانيته والزهو الذي يتملكه رغم حواراته السابقة معي والتي كانت جيدة وداعمة.

كان لزاما علي أن أفهم الواقع الجديد وكيف يسير؟!، وأغلب الظن أن الاتحاد السوفيتي لم يعد قادرا على فعل شيء، لهذا لجأ قادتنا للوحدة الاندماجية مع شمال الوطن, وكان الجميع في عدن سعيدا بها، لكن ماذا عن النظام والدولة وماهو مآلنا؟!، تذكرت حينها مقولة سمعتها قبل فترة من "جورباتشوف" يقول فيها:

ــ يتشكل النظام العالمي الجديد بسرعة كبيرة لدرجة أن الحكومات وكذلك المواطنين العاديين يجدون صعوبة في استيعاب سلسلة الأحداث

فكيف أفهم أنا هذه الأحداث وتسلسلها بقدراتي الركيكة وفهمي المحدود؟! ومع ذهاب معظم المسؤولين إلى "صنعاء" أصبح عمل زوجتي "أشجان" وشبكتها راكدا, ولم يعد أحد من كبار المسؤولين من يمكن الاعتماد عليه, أو حتى يستحق أن نصرف عليه قرشا, وليست شبكة للدعارة

موجهة للأفراد, بل كان لدينا فكر وهدف نسعى إلى تحقيقه، فبدأت الشبكة تضعف وتذوي والفتيات تتسرب منها رويدا رويدا في أعمالهن الفردية التي لا تهمني، حتى بقينا أنا و"أشجان" وحيدين بلا عمل فعلي نقوم به لكني مازلت أجني الكثير من المال من أعمالي الخاصة خصوصا في الغربة، وخلال تلك الفترة بدأت وفود المغتربين تعود إلى الوطن مستغلين رياح التغيير والانفتاح وأسعار صرف العملات التي تتصاعد رويدا رويدا, وكان الكثير منهم يبحث عن منازل أو أراضي لشرائها فاشتعلت في ذهني الفكرة االمستقبلية حين أخذت أجمع الأفكار والمعلومات ومعرفة من يمكن أن يساعدنا بها، وبدأت سطوة التسعينات بكل جمالها وتميزها.

تسيعنياتون

كنت أستمع لخطابات الرئيس الجديد "صالح" ونائبه "البيض" الذي كان قائدنا إلى جواره, وهو يتحدث عن الديمقراطية والوحدة, وتشجيع المغتربين على العودة والاستثمار في الوطن, لكني لم أكن مقتنعا بترك الاغتراب وترك استثماراتي هناك من أجل الشعارات المرتبطة بمعاداة دول الجوار التي دفعنا ثمنها غاليا فيما بعد، لكن أمواج العائدين إلى "عدن" جعلتني أدرك أن النفوذ القادم سيكون لأصحاب المال المغتربين الذين يملكون السيولة, ولكنهم لا يملكون العقل الاستثماري والفكري، فبدأت بإعادة تواصلي مع بعض المسؤولين الصغار ممن تبقى في "عدن", وكنت أعرفهم وسبق أن قدمت لهم بعض الخدمات الأشجانية.. نسبة إلى زوجتي "أشجان"، وكان كل مايهمني هو أن يكون لي نفوذ في

وزارة الإسكان التي تملك كل الأراضي في "عدن". جنة الأراضي الخالية، مساحات شاسعة بحجم دول بإمكانها أن تبتلع مدنا ضخمة, فارغة ولا يوجد لها حتى مخططات، فكانت الخطوة الثانية هي إعادة شبكة "أشجان" للعمل لكن بشكل مختلف وأكثر تركيزا ومحدودية, فالسطوة الآن هي للمال وليس للنساء، لذا فقد استطعت – من خلال ما أملك من المال مع ضخ المزيد من أموال تجارتي في الغربة التي يديرها أخي "فضل" وأقاربي والتي كنا نقوم بتحويلها بطرق مختلفة غير رسمية ــ أن أحصل على الكثير من الأراضي الواسعة في مناطق بعيدة, فلم أكن أبحث عن أراض في مناطق سكنية ومرتفعة الثمن فقد أدركت أن أمواج الامتداد العمران الطاغية وتسونامي المغتربين سيجتاح كل مساحات عدن, ويلتقمها كحوت أزرق يبتلع حبارا هلاميا ضئيلا، وحينها كان على "أشجان" وشبكتها ترويج الأراضي لدى عملاء الشبكة من التجار

والمغتربين الباحثين عن الاستقرار السكني والعاطفي, وأنا من كنت أوفرهما، وكانت الدولة في ظل الانفتاح تبيع كل شيء. كل مبنى وكل مساحة خالية وكانوا يعدون المخططات على عجل في كل مرة يصلون بها إلى منطقة خالية، فأصبح أولئك المسؤولون الفقراء المجدبين المتعفنين بالأفكار الاشتراكية والمباديء التقدمية البالية يرتدون ربطات عنق ويقودون أحدث السيارات ويصطحبون أجمل الفتيات.. فتياتي بالطبع، وكذلك كان المغتربون يعيشون لحظات الوهم والتملك والحب مع فتيات صغيرات في السن بعد سنوات الغربة والانعزال المجتمعي, حيث يكتفي المغترب بالعمل والالتزام بالقوانين في غربته. يصبح مع مرور السنوات مفتقدا للعاطفة والدلال فكيف إن كان مفتاح توفير العاطفة له هو حصولنا على أمواله وبيع الأراضي له ولأمثاله من الغارقين، ومن لم

يكن يملك المال لشراء قطعة أرض كبيرة كنت أجعله شريكا لي بها, فيدفع لي أضعاف ما دفعته أنا من أجل استخراجها.

نمت ثروتي بشكل مهول خلال سنوات مابعد الوحدة. هذه الوحدة العظيمة التي استطاعت أن تجعل الجسد الواحد يعيش بجسدين وروح واحدة هائمة متعبة؛ روح لم تكن تكفي لأن تبعث في الجسدين مايكفي لكي يعيشا؛ جسدان هما شعب واحد يملك ذراعا وساقا واحدة, فلا يستطيع أن يتحرك ولا أن يعمل أو يعيش بكرامة, هذا الشعب العظيم الذي يتشابه في كل شيء من أقصاه إلى أدناه حتى في فقره وسعادته ورقصه وبكائه, يشبه بعضه في كل شيء لدرجة أنك لا تدرك لم افترق, لولا لؤم الساسة وغياب دولة مركزية طوال خمسة قرون منذ أن رحلت الدولة الطاهرية في "عدن" بمقتل آخر ملوكها غدرا, حتى تحققت مجددا في "عدن" مدينتي

التي أعادت لي وهج الوحدة, وكأن "عدن" هي بوابة الوحدة والتشرذم. سأعترف أن الكثير من قناعاتي تغيرت منذ زيارتي لآخر مرة عند المشعوذ, لكني شخص تحركه المصالح, وحيث توجد مصلحتي يوجد وطني ووحدته.

نمت ثروتي حتى أصبحت صاحب سطوة نفوذ عند الجميع إلا عند المتطرفين ومنهم أخي "عاقل". في كل زيارة لي للقرية كنت أراه مع بقية المتطرفين, وهم يرموقنني بنظرات الكره والاشمئزاز حتى حين يسلمون علي، وفي كل مرة كانت القرية تصبح أكثر فأكثر تحت سطوتهم ونفوذهم وهم يوجهون الأطفال ويرعونهم، ولم تعد القرية كما كانت سابقا موئلا للتسامح والانفتاح والحرية وكل نساء القرية هن قريباتي, واليوم لا أستطيع حتى أن أحيي أي امرأة تمر بجانبي في أزقة المدينة, ولن أعرفها أساسا بعد أن أصبحت العباءات الأفغانية السوداء هي لباس كل

نساء القرية, حتى زوجة أخي لا أستطيع أن أحييها ونحن في منزل واحد وأنا من تكفلت بمصاريف زواجهم، حتى والدتي أصبحت مقتنعة بهذه الأفكار وعبثا حاولت إقناعها بأن النساء في سنها ليس عليهن لبس تلك العباءات السوداء فهن من القواعد, والشرع الذي يتشدقون به جعل رخصة في لباس القواعد من النساء، لكن أخي استطاع غسل دماغها بأفكاره السوداء وتعصبه المقيت, وأنا من كنت أعتبره كولد لي وكانت أموالي هي من جعلته رجلا وشكلت لحمه ودمه وعقله المريض, واليوم يحرض والدتي ضدي لدرجة أن تدعو علي وهي تصيح وتضرب رأسها بيديها وتتدحرج أرضا وهي تبكي, لأني حاولت إقناعها بعدم لبس النقاب الغريب عن عاداتنا ولبس منطقتنا الجبلية الذي لا يصلح معها تغطية الوجوه بهذا الشكل, وكأني كفرت أمامها أو أني طلبت منها أن تعبد الأصنام.

وبسبب ماحدث أصبحت أقرأ كثيرا في المقالات الدينية خصوصا التي تتحدث عن الرد على المتطرفين كما أصبح الإعلام يسميهم, وقد وجدت ضالتي في الصحف والمجلات الصادرة من بعض الدول العربية أو الصادرة في أوروبا, كالأهرام المصرية والحياة والشرق الأوسط اللندنيتين, والشروق الجزائرية, والسفير اللبنانية, والبيان الإماراتية, والأعمالة الأدبية كرواية "عمارة يعقوبيان" لعلاء الأسواني, و"الإرهابي"لأمل دنقل", "وأيام معه" لكوليت خوري" وغيرها من الدول التي أصبحت ترزح تحت نير عصبيتهم وإجرامهم, وفي أفلام السيناريست المصري الكبير "وحيد حامد" وغيره من مؤلفي الأعمال الفنية في مصر والخليج، وكنت كثيرا ما أدخل في نقاشات معهم حول الحجاب والنساء والتسامح وكان هذا كل مايهمني، أما هم فقد أعادوا لقب " الديوث" إلى الواجهة وكنت أراهم يصرخون به وهم صامتون, وكم

كنت منصدما أن أخي الذي ربيته بمالي يطلق علي ذلك اللقب, وكانت تلك المرة الوحيدة التي بكيت فيها منذ أن وعيت في هذه الحياة, والمؤلم إني بكيت أمام جمع من المسؤولين في مجلسي حين كنا نتحدث عن الإرهاب والتطرف, وهذا ما مثل جرحا قويا لن يندمل فليس أسوأ من إن تجرح أسدًا، سيظل يتحين الفرصة للانتقام ولو بعد سنوات.

مع اختلاط الدين بالسياسة أضحت البلاد على حافة الانهيار مجددا, بعد شهور قليلة من الاستقراروالأمل في أن نصبح بلدا مستقرا, وأصبح رجال الدين هم أصحاب السلطة وهم أصحاب النفوذ, وقد تذكرت حينها مقولة للشيخ الشعراوي كنت قد حفظتها من قراءاتي الجديدة حول الدين يقول فيها:

ـ أتمنى أن يصل الدين إلى أهل السياسة ولا يصل الدين إلى السياسة

ولأن قبضة السلطة في عدن ومناطق الجنوب مازالت بيد النظام السابق نسبيا, فقد مارست ألاعيبي القديمة في كتابة التقارير بحق أولئك المتشددين في قريتنا, ومنهم أخي الأصغر "عاقل" الذي كان هو شيخ القرية رغم جهله وقلة تبحره بعلوم الدين, وقد تحديته أثناء زياراتي عدة مرات أن يناقشني في أمور الدين لكنه كان يتهرب مني أو ربما لا يريد صنع المشاكل معي, وهكذا فجأة وجدت نفسي مختلفا مع كل إخوتي ماعدا أخي "فضل" ابني الشيطاني الذي لم أنجبه من صلبي, حتى أخواتي البنات كنت مختلفا معهن بحجج مختلفة وانقطعت علاقتي بهن وبأزواجهن بدرجات متفاوتة, إما بسبب التطرف الديني أو بسبب زوجتي "ليلى" التي كانت تكره أسرتي وتسعى لكل ضغينة ومشكلة, لذا فقد قمت

بتحسين علاقتي مع أخي الأكبر "حسن" والذي لم يكن يمانع في أي علاقة تقارب معه متى ما أردت, لكن بنفس الوقت كان حقدي تجاهه يزيد كلما رأيت أبنائه يكبرون في كل زيارة إلى منزله بينما هو مستمر في معاملته السيئة لهم وضربهم حتى وهم على مشارف الجامعة, ولم يكن يدري أن أولاده مثار حسد كل العائلة بذكائهم ووسامتهم وأخلاقهم الرفيعة, بينما كنت أرى ولدي ضعيفا مهترئا وكسولا وقبيحا.

اندلعت حرب جديدة في بلادي، هذه البلاد مدمنة الحروب وعاشقة البارود، تجتذب الحروب كما تجذب النار قطرات الغاز. حرب جديدة عشنا تفاصيلها طوال ثلاث سنوات من عمر الوحدة، خلافات لا تنتهي واتهامات متشعبة كأنها شجرة سدر مجدبة، وكل يدعي وصلا بليلى الوطن ــ لا علاقة لها بزوجتي بطبيعة الحال ــ لكي يمارس معها

علاقاته القذرة، وبنفس طريقة الحروب السابقة وقفت المناطقية في حلق الوطن، وتمنطق الجميع ليس من باب المنطق والحق بل من باب المناطقية, ففشلت الوحدة في أن تعيد كرامة الإنسان, وأن نكون شعبا واحدا, وعادت إلى ذهني مشاهد الناس الفقراء الذين يصدقون المشعوذين ويقتنعون بهم, فلا يمكن أن نكون شعبا واحدا, أصبح الجميع فجأة شمالا وجنوبا بشكل لم نعرفه حتى في عهد التشطير, كان الجميع في الشطرين يندفعون نحو مصير غامض. ولا أحد يعرف أن سيتوقف هذا الجنون, كان الجميع في حالة انتظار مريرة تحت وقع التأجيج والخطابات, كانت تلك اللحظات تصنع تاريخا جديدا لليمن بكل تأكيد؛ تاريخ جديد يكتنفه الغموض, ويحمل بين أحشائه أسئلة لم تولد إجاباتها بعد، وكما قال الشيخ "علي الطنطاوي":

ــ تلك هي الحرب : آفة الحياة ، وعار الإنسانية

استطعت اللجوء إلى القرية مع اندلاع الحرب حيث أن منطقتي خالية من المعسكرات, وخالية من الحياة السياسية إلا بما تقره السلطة والأحزاب في العاصمة، ولكن مع تنامي الأخبار عن هزيمة السلطة في "عدن" في أتون الحرب ومع تنامي دور المتشددين الذين وجدتهم يتحركون تحركات مريبة, كتبت على إثرها مجموعة من التقارير لقسم الشرطة في المركز عنهم وعن تحركاتهم بالتفصيل, لكن كما يبدو فالهزيمة وقعت قبل أن تحدث بالواقع فلم يتحرك أحد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، لذا فقد قررت السفر حالا بسيارتي إلى شمال الوطن ومنها إلى بلد الغربة عبر الحدود مع الشمال, وكان سفري سهلا بلا أي عوائق، ومن هناك وصلتنا الأخبار عن سيطرة المتشددين على مراكز الشرطة والإدارة المحلية في منطقتي مستغلين غياب أي قوة للسلطة وكانوا بالمئات, يديرهم أحد المجاهدين العائدين من أفغانستان يدعى "عبدالجبار الجمدي" كانت له أدوار في مرحلة التفجيرات التي سبقت الحرب التي أرعبت المدينة وأقلقتها, وكان يتلقى الأوامر من شخص غامض على رأس الجيش عبر خلية يديرها

أحد الذين جاهدوا في أفغانستان سابقا يدعى "حمود", عرفت فيما بعد أنهم أصبحوا أصحاب رتب كبيرة في وزارة الداخلية نظير خدماتهم التي قدموها لنظام "صنعاء"، وماهي إلا أيام حتى انتهت الحرب وانهزم الرفاق وانتصرت الوحدة ميدانيا, ولا يعلمون أنها هزمت في النفوس، وأسوأ الهزائم هي خيبات النفوس التي تبقى طويلا تعالج نفسها فإذا فشلت ثارت. وهكذا أصبحت البلاد مقسمة بين أطراف الحرب المنتصرة وتم إدخال الكثير من المجاهدين الأفغان في سلك الأمن بالدولة, وكان من بينهم "عبدالجبار الجمدي" الذي أصبح مديرا للأمن وستكون لي معه حكايات كثيرة فيما بعد، وبعد عام كامل في الغربة أحسست باستقرار الأوضاع, وبدأت باستقراء الأوضاع مما كان يصلني من أخبار من الوطن ومن "عدن" التي تغير جلدها مجددا للمرة الخامسة خلال ربع قرن, وحل القادمون الجدد مكان الذين هربوا, وبدأوا بإنزال صور المنهزمين ومحو رسوماتهم والسيطرة على منازلهم, في مشهد يتكرر كل عقد مرة ربما, لكنه من كثرة تكراره يبدو وأنه لم يغب عن ناظري.

مازالت السمة السائدة هي بيع الأراضي, لكن بشكل أعمق حيث لم تعد المساحات الخالية في المدينة متوفرة بشكل جلي فلجأوا لبيع المساحات خارج المدينة وبيع بعض المرافق السابقة باسم الخصخصة, أما أنا فقد اكتفيت بما لدي وبما بعته سابقا, فقد برزت ثعابين أراض مختلفة هذه المرة؛ قادمة من "صنعاء" تملك خبرة أكبر في العشوائية والعبث الذي طبقوه على "صنعاء" نفسها, حتى أصبحت أكبر مدينة عشوائية. لا تجد فيها شارعا مستقيما ولا مساحات خالية للتنفس، لكن لدي معارك ورد اعتبار لدى من أطلقوا علي لقب الديوث.

وبما أن "أشجان" .. لم تعد تشكل أي أهمية لدي في "عدن" حيث تغيرت الأوضاع وتغيرت اهتمامات المسؤولين وطرق السيطرة عليهم, بالإضافة إلى أنها تشكل ماضٍ لا أريده أن يمتد إلى حاضري ومستقبلي, لذا فقد طلبت منها الانتقال إلى "صنعاء" والبقاء هناك لدراسة الأوضاع وترتيب أمورنا.. دون أن تفعل أي شيء مريب سوى التعرف على النساء

ودراسة الأمور من الداخل, ريثما نبدأ العمل مجددا حيث السلطة والمال والقادمون الجدد إلى السلطة عبر تحاصص الحرب وشراكة السلم, ففي صنعاء تم اختزال اليمن بكله إثر انتهاء "عدن" كعاصمة سياسية للجنوب, وإثر انهيار " تعز" كعاصمة تجارية, ليبدأ الحج الكبير إلى "صنعاء" من قبل الجميع, وتعود الوحدة واقعا للشعب الذي سعى كثيرا من أجل تحقيقها, وضحت "عدن" كثيرا من أجل الوحدة لجمع شعب واحد يتشابه في كل شيء, هذه الوحدة العظيمة التي تحقق للشعب مصالحه وأحلامه التسعينياتية الجميلة؛ الوحدة التي كنت أسعى إليها شخصيا ــ يجب أن يكون كلامي هكذا ــ في أحلامي وأنا الفرد البسيط, والشعب في حقيقته هو نتاج أحلام كل فرد فيه.

هكذا سأبدأ حاضري بشكل مختلف, بمظهر ديني إلى حد ما وقد كنت بدأت بإظهار التزامي الديني من خلال الصلاة وترديد بعض الآيات في أحاديثي, وإن كنت لا أزال على خلاف قوي مع أخي "عاقل" وعصابات

المتشددين من أقاربنا وكذلك في القرية, لذا فقد فكرت في عزل المتشددين في قريتي عن الاستقواء بالسلطة أو كتابة تقاريرعني.. من خلال نسج علاقات مع المسؤولين في منطقتي من خلال الهدايا القيمة التي كانت تصلهم عبر بعض التابعين لي, وكذلك رحلات العمرة والحج التي كنت أمنحها لهم بدعوى أنها من جهات ما، وهكذا أصبح "عبدالجبار الجمدي" القيادي الجهادي الذي منحوه رتبة عميد في وزارة الداخلية لدوره في الحرب صديقا لي ومن خلصائي, ولم يكد يمضي العام حتى قام بحلق لحيته الطويلة والكثة التي كانت تميز مظهره, وأصبح من متعاطي القات والتدخين بشكل مبالغ به, وقد أخبرني في أحد الأيام ــ في إحدى جلساتنا معا ــ أنهم عثروا على التقارير الأمنية التي كنت أكتبها بحق أخي وبقية المتشددين في قريتي بعد سيطرتهم على مراكز الشرطة إبان الحرب, أو كما يدعوهم هو بالملتزمين, ولكن هذا من الماضي وأن هناك أوامر مشددة لهم بفتح صفحة جديدة بعد انتصار الشرعية، وهكذا كان كل المتشددين الدينيين الذين وصلوا إلى السلطة يحاولون استمالة

الناس رغم أن كل أفعالهم تناقض مقولاتهم وخطبهم حيث يقول المفكر "إبراهيم الكوني":

ــ رجل الدين ليس مكانه السلطة ، الدين مبدأ إلهي والسلطة مبدأ شيطاني ، السلطة دائما خطيئة ولا يجوز أن تثق بمن يسعى إلى السلطة

توترت علاقتي بأخي "عاقل" أكثر وهو مع جماعته يرون أن مصيري إلى النار. مصادرين حق الله في مصائر عباده وأن العقاب حق الله على المذنب, وليس في إسقاط العذاب مضرة على الله, فهل سيكونون أعظم عند الله من المسيح عليه السلام وهويقول في القرآن:(إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم).

وصلت معهم إلى طريق مسدود لذا فقد أطلقت عليهم سلسلة من الإشاعات والأكاذيب حول شذوذهم الذي يمارسونه في المساجد مع الأطفال, وسرقة التبرعات وغيرها من القصص التي كان يتولى نشرها بعض الرعاع في القرية الذين يبحثون عن قوت يومهم وامتهان الفوضى

وخلق الأقاويل. وحتى أجعل "عاقل" يخضع لي وأن أقطع عليه مصادر التمويل وتنغيص معيشته, قررت أن نقوم بتقسيم تركة والدي الذي لا يزال حيا, وكانت هذه الحالات موجودة في منطقتي تقوم بها الأسر منعا لوقوع المشاكل بين الإخوة بعد وفاة والدهم، واستطعت إقناع والدي بهذه الخطوة والذي لم يكن يشكل أي عائقا أمامي, أو أمام أي منا, فكل ما يهمه في الحياة هو أن يعيش حياته بهدوء, ولم يكن بيني وبينه أي توافق منذ صغري إنما كان كان أبا جيدا وإنسانا صالحا, لكنني كنت أكرهه لأنه كان يحب أخي الأكبر ويفضل السكن في منزله برعاية زوجة أخي كلما نزل إلى المدينة، وبخصوص شقيقاتي الإناث فلم يكنّ يشكلن أي أهمية؛ لذا لم يكن لهن نصيب من الميراث, وكنت أهدف من هذا صنع المشاكل بينهن مع "عاقل" الذي يخالف نص القرآن الصريح ويخالف كل خطبه، وعندما اجتمعنا في منزل أخي الأكبر بحضور أخي حسن وأخي "فضل" الذي جاء من الغربة ــ خصيصا ــ تلبية لأوامري وكذلك "عاقل", واتفقنا على تقسيم التركة والتي لم تكن سوى بعض

الأراضي الزراعية المتفرقة في مدرجات الجبال. وقفت أخاطبهم بكلام طويل وديباجة لاستعراض العضلات, وأن على الجميع أن يحافظ على الأراضي التي بحوزتهم, وألا يقوموا بقلع أي شجرة حتى لو كانت شجرة القات بدعوى أنها حرام إلا إذا كان هو من زرعها, وكنت ألمح بالطبع لأخي "عاقل" الذي أدرك مغزى كلامي فأخذ يقول بسخرية:

ــ كل هذه الأراضي والأشجار زرعت على يدي مع والدي، فأنا الوحيد منكم الذي بقيت في القرية

كان كلامه استفزازيا لي وأخرجني من شعوري وجعلني في موقف محرج, ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أطير باتجاهه وأقوم بصفعه وتوجيه اللكمات والركلات إليه, وبالكاد استطاع إخوتي وأبي إيقافي، لكني استمررت بتوجيه الشتائم إليه وإهانته, وللإمانة فهو لم يفعل أي شيء أو حتى يقاومني, واكتفى بالصمت مع نظرات القهر والإحساس بالإهانة والذل، وهذا كان بمثابة انتصار أول عليه.

بقيت مشكلة واحدة تواجهني وهي الأكثر إيلامًا لي لأنها من صلبي، فقد كان ولدي "سامر" مجرد كتلة من القبح والغباء والكسل، حاولت أن أجعله يواصل دراسته إلا أنه فشل, كما حاولت دمجه في العمل معي دون جدوى، ففي كل مرة كنت أسافر فيها إلى "اليمن" يترك العمل ويبقى نائما, وكان كل ما يقوم به خاطيء, ولا هم له إلا صرف الأموال والتسكع في الأسواق والاستراحات مع الشباب التافهين أمثاله, وكم كنت أضربه وأطرده من المنزل ثم يعود بعد وساطات والدته "ليلى" التي أسرفت بتدليله, كما أسرفت بمنعي من تربيته كما ينبغي، وأكثر ما حطمني هو أنه وصلت لي رسالة مطبوعة في ظرف فحواها أن ولدي شاذ، ظللت لأيام طويلة تائها بلا تفكير وأحدث نفسي كالمجنون

ــ أنا سيد الرجال وبعبع المتذبذبين وأشباه الرجال يكون ولدي هكذا. أين أنت أيها الشيطان؟! أين أفكارك؟ ساعدني هذه المرة, أخبرني عن مصير علاقتي بولدي, من هو السبب؟!.

ماذا ينقصه ليصبح مثل أبناء أخي؟!، قسما بأني سأجعلهم عبرة لمن لا يعتبر, حتى السحر الذي صنعته لوالدهم لتدميرهم لم يمنعهم من النجاح في دراستهم وأعمالهم.. ماذا أفعل معهم؟!

وبعد تفكير عميق قررت القيام بعدة خطوات أولها أن أبعده عن شلة الفساد التي يسايرها ليلا ونهارا ويتسكع معها في المقاهي والاستراحات الخاصة، وثاني القرارات هو أن أتزوج علنا هذه المرة وعلى سنة الله, فقد سئمت من محاولات الإنجاب وزيارة الأطباء ومراكز الخصوبة, فالتقارير كلها كانت تشير إلى أن "ليلى" لم تعد قادرة على الإنجاب كما أن معدل الخصوبة عندي ضعيف جدا يكاد أن يكون صفرا, بالإضافة إلى انعدام رغبتي الجنسية منذ زيارتي للساحر في "رداع", وقد كنت أتجاهل ما رأيته من رعب وأنا في منزل الساحر وأحاول نسيان ذلك الموضوع لكنه أصبح هاجسا لي.

سيكون قرارا صادما للجميع لأن الجميع يعلم بقدر حبي لزوجتي "ليلى" وقوة شخصيتها، لكني أريد ولدا يحمل اسمي ويدير أملاكي وسوف أصبر عليه حتى يكبر, فهذا أسهل من إصلاح "سامر" أو أن أؤمل فيه خيرا ليكون رجلا يتحمل المسؤولية.. فلا جدوى منه.

هذا القرار يتطلب مني جرأة كبيرة لمواجهة "ليلى" وسوف أقوم بها بهدوء وانتهاز الوقت المناسب لذلك؛ لذا فقد وجدتها فرصة سانحة في أحد الأيام حين فشل ولدنا في القيام ببعض الأعمال التي طلبتها منها, وبنفس الوقت قام بقيادة سيارتي وأنا نائم فأحدث فيها أعطالا كثيرة بسبب حادث مروري, فقمت بضربه ضربا شديدا أفرغت فيه قهري وصدمتي من أن يكون هذا المسخ الأصلع ولدي, لا أدري حتى لمن أصبح أصلعا دون أسرتي كلها وأسرة أمه كذلك، وأثناء فورة غضبي انتهزتها فرصة سانحة فأعلمت الجميع بصوت عالٍ بأني سأتزوج, وبأنه يجب أن يكون لي ولد قادر على تحمل المسؤولية وأن يرث التركة

ويواصل المشوار، ثم خرجت من المنزل لعدة أيام دون عودة ودون أن يعرفوا مكاني حتى. تركت خلالها "ليلى" تضرب أخماسا في أسداس ولا تدري أتحزن على حال ولدها الذي أنهكه ضربي له أو تصدم لقراري بالزواج, تتسائل بينها وبين نفسها طوال الأيام عن جديتي في الأمر, لكنها قررت أخذ جانب الشدة معي كعادتها وهو ماكنت مستعدا له. وعندما عدت أخبرتهم بأني قد قررت أن يذهب "سامر" لتعلم اللغة الإنجليزية في الهند, فقد كنت أهدف لإبعاده عن شلة السوء الفاسدة, كما كنت أهدف أن أجعله يطور من قدراته المعدومة تحسبا للمستقبل, لكن المشكلة أنه وافق شريطة أن يصطحب معه صديقه "إبراهيم", وهو ابن لواحدة من صديقات زوجتي في الغربة .. أمه التي تدور حولها النساء وينافقنها من أجل مصالحهن، وبعد إلحاح شديد من "ليلى" وافقت فقد كانت تخاف من ذهابه بمفرده إلى بلد بعيدة، ولم يكن حال صديقه "إبراهيم" يختلف عنه مطلقا مع كثير من اللؤم والتسلق على ظهر الآخرين ومنهم ولدي الذي لا يستطيع فعل أي شيء من تلقاء نفسه.

وكانت موافقتي بسفره لتهدئة "ليلى" حتى أستطيع الصمود أمام قراري بالزواج الذي كان كالزلزال الذي يكاد يعصف بنا جميعا, وهي تصيح وتزمجر وتقوم برمي أغراض المنزل وتكسير كل ما طالته يدها , كانت تشعر أني قمت بطعنها في كرامتها, وكسر صورتها النمطية وغرورها أمام النساء، لكني كنت هادئا إلى أبعد حد ومصمما على قراري، فلن أجد فرصة أخرى لمواجهتها وتحميلها مسؤولية إفساد ولدها, وبعد سفر "سامر" إلى الهند تحدثنا مجددا حول الأمر وأخبرتها بأنها لا تستطيع الإنجاب, وهذا ليس عيبا, فأنا لا أستطيع الإنجاب أيضا, لكني بحاجة لرعاية في "عدن" وزوجة تدير أموري وتعتني بي هناك، وبعد إصرار شديد وجدته مني, ولم يكن مألوفا لها هذا الإصرار مني رغم كل ما أظهرته من غضب واستعداء. وافقت بشروط منها: أن أشتري لها اثنين كيلو من الذهب تختاره بنفسها من محلات أخرى وليس من المحلات التي أنا شريك بها, أن أكتب لها بيتا باسمها في "عدن" وألا يكون للزوجة الجديدة منزل خاص سوى بالإيجار, وسيارة لولدها وأن يتزوج

بعد إنهاء دراسته للغة الإنجليزية مباشرة, وأن تذهب معه لخطبة العروس الجديدة بنفسها, والموافقة عليها شرط من شروطها الرئيسية, وأن يكون زواجي في "عدن" وتبقى زوجتي الجديدة هناك

حاولت الاعتراض على كمية الذهب وتقليله، بالإضافة إلى تزويج ولدنا الفاشل دون جدوى؛ فرضخت للأمر الواقع كما هو حالي معها دوما، وكان موضوع خطبتها لي وموافقتها على زواجي حديث الجميع, وتدليلا على قوة شخصيتها وضعفي أمامها, وهو ماكان يعرفه الجميع على أية حال, ويتحدثون به في مجالس النميمة ومقايل الغيرة, لكنه أصبح أمرا واقعا ولم أكن أعلم أنها هي من تتفاخر بقوة شخصيتها في كل مجلس ومجمع, وأنها هي رب البيت الحقيقي الذي لا تعصى أوامره.

كل ماكان ما يهمني هو أني تزوجت مجددا في نفس التوقيت الذي بدأ نجل أخي الأكبر فيه بالاستعداد لدخول لكلية الطب، كان تخيل "ساهر" ابن

أخي المغفل طبيبا بشريا يثير هلعي وغضبي ، لذا فقد ابتعت بعض الهدايا وذهبت إلى أخي الذي تقاعد من عمله بعد حرب الوحدة الأخيرة, ولم يعد راتبه التقاعدي يكفي لإعاشته هو وأسرته ناهيك عن مصاريف نجله المستقبلية في كلية الطب, أخبرت أخي بصعوبة التكاليف الجامعية واقترحت عليه أن يصرف ولده النظر عن دراسة الطب, وأن عليه أن يختار دراسة المحاسبة فهي سهلة ومصاريفها أقل, كما أن مستقبلها الوظيفي مضمون وسوق العمل تنقصه هذه الكوادر, ووظيفته مضمونة لدي منذ الآن, كما أني سأمنحه مقابل هذا راتبا شهريا, وفي الحقيقة لم أحدد الراتب الذي كان في نهاية المطاف حقيرا لا يكفي لأسبوع واحد، المهم بأني أقنعت أخي الذي استخدم القوة لاقناع ولده الذي وافق مجبرا وهو حزين، وكنت أمني النفس بألا يستمر في دراسته الجامعية بسبب ارتفاع تكلفتها دون جدوى, وفي نهاية المطاف اختار أن يدخل كلية الإعلام, وكان يمني النفس أن يصبح مخرجا سينمائيا كبيرا نظرا لميوله الفنية وثقافته العالية، أما ولد أخي الثاني "ناصر" فقد قرر السفر إلى

الغربة, بينما كان "ربيع" قد قرر التوقف عن الدراسة منذ الثانوية والعمل في بعض شركات القطاع الخاص التي تبوأ فيها مناصب مهمة, وقد زارني في أحد الأيام دون علم والده يطلب مني يد ابنتي "جميلة", وهو الأمر الذي صدمني, فأبديت رفضي للأمر لعلمي أن "ليلى" لن توافق على تكون ابنتها في منزل "بدرية" وتحت رحمتها، حاول "ربيع" مرارا وتكرارا معي، وبعد تكرار رفضي أخبرني بأن "جميلة" تحبه هي الأخرى, وبأنه حب حياتها منذ الطفولة, كما أنهما يتراسلان بشكل مستمر على الإيميل وبرامج المراسلة على الإنترنت وهو ما أثار حفيظتي فطردته من منزلي, واتصلت بزوجتي لقطع وسائل الاتصال والتواصل عن "جميلة" التي لم أكن أتوقع أن تطعنني في شرفي وتراسل شابا حتى لو كان ابن عمها، وعندما سأعود إلى بلد الغربة سأتصرف معها، ولأنه كان قد حدثني دون علم والده فلم أتحدث مع أخي حتى لا يشعرون بأنهم أقوى مني أو انتصروا علي.

يقول الإمام الشعراوي:

ـــ أهل الجنة لا يعرفون الحسد ولا الحقد ولا الغل

ولذا استمرت العلاقات المتوترة مع أخي الحقود "عاقل" إلا أنها كانت صامتة, وكأنهم يتحينون الفرصة بي, فقد كنت أصحطب معي كنوع من الاستقواء والتظاهر بأهميتي بعض الأقارب والمعارف الذين يحبون التطفل على الآخرين وعلى موائد أصحاب المال مثلي, حتى لا أبقى وحيدا في القرية؛ فقد كنت شبه معزول. في كل مرة كنت أذهب إلى القرية أبقى معزولا ومهمشا, ولم يكن يجلس معي في مجلس بالقرية سوى أربعة أو خمسة أشخاص. وكانت أصعب اللحظات التي كنت أضطر فيها لأن أستعين بأبناء أخي "حسن" لمنحي شعور القوة, وبأن لدي أبناء أمام أهل القرية, والإيحاء كذلك بأنهم بحاجتي وبحاجة أموالي, بينما هم في الحقيقة كانوا هم الوحيدون بلا مصالح ممن أعرفهم, وفي نفس الوقت كان ولدي مشغولا بالتفاهات ومجالسة الشواذ من رفقائه. وبشكل عام لم يكن يهمني موقف المتشددين أو تخيفني ردة فعلهم طالما أن

رجال الحكومة في منطقتنا أصبحوا من خلصائي أو عبيدي, وهم من هم في جبروتهم وبطشهم السابق كمجاهدين وأرباب حروب .

أصبحت مقتنعا أن المال والسياسة عندما يجتمعان يصبحان أقوى سلاح وأعظم فكرة وأجمل إغراء ودين البشرية الأكمل. ستجد الكل يترك كل قناعاته عند الاقتران بهما وينسى كل شيء سواهما، ولم يعد موضوع "عاقل" أخي يشكل أهمية لي هو وشلة البراغيث التي حوله في القرية. هكذا كنت أسميهم كرد على لقب "الديوث" التي أطلقوه علي, فكل واحد منهم "برغوث" يمص دم الدين ويحوله إلى مال. مجموعة من العاطلين عن العمل يتاجرون بالدين والخطب ليل نهار, ومع هذا يملكون السيارات ويأكلون أطيب المأكولات، كنت أسأل نفسي سؤالا ملحا دائما :
ــ لماذا لا تجد رجل دين فقير، أو شيخ دين لا يملك مالا؟! إنها ذات الحكاية حول القساوسة الذين يجمعون المال باسم الدين وبيع صكوك الغفران, والحاخامات الذين يظهرون بأزيائهم الباهظة, هي اليوم تتكرر

مع شيوخ الدين في الإسلام, كم مرة سمعناهم يرددون قصصا على شاكلة الرجل الذي تاب على يد شيخ كبير, وعندما أتت الرجل التائب ساعة وفاته ــ وكلهم يموتون بالمصادفة بسرعة بعد توبتهم, وجميعهم يعرفون بقرب موتهم ــ طلب من الشيخ أن يكتب له ورقة يضعها معها في قبره لكي يبعث وهي معه, وكأن الله لا يعلم عن توبة عباده, قصص مكررة في كل المذاهب والفرق, وهي أنكأ في الصوفية, وأكثر تشويها عند الشيعة.

يتحدثون عن الزهد والتقوى والآخرة, وهم يعيشون في رفاهية ويتزوجون من النساء ماطاب لهم, ولا يأكلون إلا اللحم والعسل.. تبا لهم, كانت كل قوتهم في المنبر؛ هذا المنبر الذي يعادل كل الأسلحة الجبارة, من يمتلكه يستحوذ على عقول الناس وقلوبهم من خلال إيهامهم بقدرتهم على أن يكون طرق الجنة من خلالهم, أو يكون طريق النار من غضبهم, لذا صرت مقتنعا أن حرمانهم من هذه الميزة هي

الكارثة بالنسبة لهم وعامل انتهائهم, منذ أيام صكوك الغفران المسيحية, وهناك مقاومة شديدة وكفاح مرير دفعت البشرية في الغرب ثمنا فادحا لكي تتحرر منه وتصبح أمة عظمى تقود البشرية, بينما لا زلنا ندور في تلك الداومة وبين أعمدة المنبر الخشبية. يروجون بشكل مستمر عن القصص التي تتحدث عن بركة المشائخ والفقهاء, نحن بالنسبة لهم مجرد زبائن كلما زادت مشاهدتنا لهم وجلوسنا إليهم زادت ثرواتهم وانتشر ذكرهم في باقي المساجد وشرائطهم توزع وتباع ودخلهم يزيد.

بعد عام ونصف أكمل ولدي "سامر" دراسته في الهند والتي لم تكن سوى مسرحية هزلية مارس فيها كل القذارات هو ورفيقه "إبراهيم" ابن "علياء" القصيرة وعلى حسابي, فلم يكن "إبراهيم" يدفع فلسا واحدا, حيث كان كتلة من الدناءة وانعدام الكرامة وكمية كبيرة من الخبث, وكأنه ثعلب قصير مقطوع الذيل ليس له أي مهمة سوى أن يجعل الحيوانات في الغابة تقطع ذيولها. كان هو من يوفر لولدي كل أسباب الشذوذ وشرب الخمور ويجلب له المخدرات وأوراق التنبول في "الهند", بينما هو لم يكن يتعاطى أي منها سوى القليل من الخمور من وقت لآخر.

عاد ولدي أسوأ مما ذهب وقد صرف أموالي على شذوذه رفقة رفيقه و بعض الأجانب الذين التقاهم في الهند, ولم يكن لدى معظمهم أي رغبة حقيقية في الدراسة سوى رغبة أهاليهم الأثرياء. عاد "سامر" وعاد مسلسل الضرب حيث كنت أضربه كثيرا بل إني ضربته في اليوم التالي

لوصوله رغم اشتياقي الشديد له وكنت متحيرا جدا من رغبتي الشديدة بضربه, كان يشبه المرأة العاجزة وأنا أضربه وهو يبكي وينوح كالنساء.

ــ لماذا لا أحاول التفاهم معه؟! لماذا أسرع بضربه مباشرة؟ ما الخلل منذ البدء في الوصول إلى هذه النقطة؟ هل هي أمه؟ هي التي أقنعتني بالصبر عليه حتى في مسألة شذوذه, وأن الرجل لا يضيره هذا ولا يشوه به, وأنها مسألة شخصية يمكن إخفاؤها عن الناس. لماذا جعلت ولدي نقطة ضعفي يا إلهي؟ ماهذا العار؟.. ماذا أفعل؟!

من قال أن الرجل لا يضيره شذوذه؟!, ماهذا الهراء الذي أسمعه حولي من كل من لديه هذه المشكلة, سمعتها كثيرا حتى في الغربة, كان ولدي هو المشكلة الوحيدة التي تنغص علاقتي بوالدته التي كنت أنفذ كل طلباتها كأني عبد ذليل بلا أي اعتراض أو تفكير. في كل مرة كنت أضربه كانت تغضب مني وتشتمني ثم بعد محاولات إرضائها تطلب مني

مقابل هذا الرضى ذهبا وهدايا, حتى أصبح ضربي لولدي تجارة رائجة لها, وفي كل مرة أعزم على عدم ضرب "سامر" وآخذ على نفسي كل العهود والمواثيق التي سرعان ما أنقضها على أتفه الأمور, وهكذا تدور الساقية فيما بيننا وتستمر مياه النهر القذرة بالجريان. وفي إحدى المرات وبعد ضربي له ضربا مبرحا وجدت "ليلى" تتعامل مع الأمر بهدوء شديد, بعد مواساتها لابنها وإحضار الطعام الذي كان يأكله بشراهة بعد كل وجبة ضرب مني, ولأني كنت أستغرب من هدوئها وأخشى منه أكثر مما أخشى غضبها فقد جلست صامتا حتى جاءت وجلست إلى جواري, وطلبت بدلال مريع, وكنت أشعر بالغثيان من دلالها قائلة:

ــ ما رأيك في أن نزوجه؟

ــ نزوج من؟

ــ "سامر" ولدي.. زين الشباب

ــ يبدو أنك مسحورة

ـ لماذا؟

ـ ألا تعرفين أنه نصف رجل؟!

ـ هذه نزوة, والرجل لا يعيبه سوى ماله

ـ ماله؟!.. أها

ـ نعم.. ماله هو مال أبيه.. هل ستتخلى عن وحيدك؟!

ـ قولي أيضا بعد عمر طويل ستكون هذه الأموال له

ـ لن أستطيع نطق هذه الكلمة, ولا أفكر مطلقا في هذا

ـ لأنك ستعيشين على قارعة الطريق كمتسولة, بعد أن يستولي على كل مالي في حال وفاتي, ولن يلتفت لكِ

ـ "خنفوسي" لا تقل هذا

ـ إياك أن تنطقي هذه الكلمة, لقد صار اسمي "الشيخ حسين" وقريبا سينادوني به كل الناس

تجاهلت كلامي وهي تقول لي بنفس الدلال المريع:

ـ ما رأيك في أن نزوجه بفتاة من أسرتي.. واحدة من بنات أختي

ـ ابعديني عن أسرتك

ـ لماذا؟

ـ "خذ منهم ولا تعطهم" كما يقول المثل, وحتى هذه يكفيني أني تورطت في هذا

ـ هل أنا ورطة؟!

قالتها بغضب مدلل أثار قشعريرتي بوجهها القبيح الذي زادت تجاعيد الزمن من قبحه:

ـ اسمعي.. ولدك شاذ, وأي زوجة من خارج أسرتنا ستفضحه في أول أسبوع من الزواج

ـ ماذا تقصد؟

ـ سأزوجه بابنة أخي "حسن"

ـ ابنة "بدرية"

نهضت من مكانها وهي تصيح:

ــ أنت رفضت أن يتزوج ولدها من ابنتي, ورغم أني مؤيدة لقرارك لكن هلا شرحت لي السبب؟

ــ اجلسي أولا

بعد أن جلست بقوة وهي غاضبة, قلت لها:

ــ أسرة أخي "حسن" فقراء أو مستورون وأولاده مؤدبون, وجميعهم رغم معرفتهم بكرهنا لهم إلا أنهم لم يبدوا أي ضغينة أو سوء أدب, وابنته تخرجت من الجامعة, وقد تعمل بشهادتها وتعيل ولدك مستقبلا وهو العالة, كما أنها سوف تستر عليه في موضوع شذوذه..

ــ ..

ــ نحن وهم عائلة واحدة وسوف تستر عليه, والمشكلة هي أبناء أخي فالأول رفضت تزويجه ابنتي "جميلة", والثاني منعته من دراسة الطب.

ورفضت أن أشغله معي بعد تخرجه كما وعدته, والثالث يعمل معي براتب متدنٍ, ولولا أخي "فضل" ما كنت شغلته معي, لكني سأتكلم مع أخي مباشرة سرا دون علمهم, وهو كالعادة سيفرض الأمر عليهم أو يضربهم فلا زال السحر القديم يفعل فعله

تركتها تفكر وتقلب الأمر ريثما أنا أنتهي من الأمر إلى حين سفري المعتاد ومفاتحة أخي الذي لن يرفض مطلقا رغم كل مافعلته به, ولأني أعلم الناس بأخي فقد أحضرت له بعض الهدايا ومبلغا حقيرا من المال وفي جلسة خاصة بيني وبينه فاتحته بالأمر, فوافق مسرورا في نفس اللحظة وهو سعيد بلم شمل الأسرة وغيرها من العبارات الهزلية الفارغة التي يؤمن بها السذج أمثاله, كما سعدت زوجته "بدرية" التي كانت تعلم بكل مساوئنا ورغباتنا الشريرة وبكل مافعلناه لهم من مكائد ومضار إلا أن قلبها الطيب في كل مرة يتسامح. هي هكذا القلوب الطيبة لا تسامح إلا من يطعنها.

لم يستغرق الأمر سوى يوم واحد لأجد اتصالا هاتفيا من "ساهر" نجل أخي الأكبر الذي كما يبدو عرف بأمر الخطبة, وهو يعلن لي رفضه لزيجة ولدي من أخته, وفي الحقيقة كنت متوقعا لبعض الاعتراضات والغضب, لكني لم أتوقع أن يتجرأ ويتصل بي هو أو أحد إخوته الآخرين, لذا فقد كان ردي مهينا له وأنا أخبره بأني تحدثت إلى أبيه وهو موافق, وأن رأيه ورأي إخوته غير مهم,

كما يقال فالجمل يتحمل كثيرا حتى تقصم ظهره قشة, وكانت هذه المكالمة هي القاصمة التي جعلت أبناء أخي يواجهونني للمرة الأولى بعد أن صبروا لسنوات طويلة على استفزازاتي, وفي الحقيقة حسدت والدهم على صبره وسعة باله تجاه ماتعرض له على يديّ, بينما عجز أبناؤه عن التحمل وهم في ريعان شبابهم, كنت أعتبر والدهم ضيق الخلق, نافد الصبر, سيء العشرة, فاتضح لي أن الجيل الجديد لا يملك أي قدرة على التحمل والمهادنة, فقد رأى ولد أخي وبعد التواصل مع إخوته أن يصعد

من رفضه إلى أعلى المستويات حيث كان الجميع يعرف أن زوجتي "ليلى" هي المسيطرة على القرارات داخل المنزل, فاتصل بها وأخبرها عن رفضه لهذا الزواج وأنهم إذا استمررنا بهذه الزيجة قدما, فسوف يقتل ولدي "سامر", ولم تكن هي بحاجة لأكثر من هذه الكلمة كحجة لكي تضعني في خانة الأمر الواقع مستخدمة حرصها على سلامة ولدها الوحيد, ولم يكن من خيار أمامي سوى الموافقة, مع إخبار أخي بالأمر حتى أشعل نار الفتنة فيما بينهم, وفي نهاية المطاف اخترت لولدي فتاة أخرى من أسرتنا لكن من فرع آخر. كانت أسرة فقيرة ستوافق على كل شروطي وهي سعيدة وفخورة بأنها ستناسب "الشيخ حسين", وفوق هذا سأرمي لهم ببعض المال مع وعدي لهم بتشغيل ولدهم في أي مكان يرغب داخل الوطن أو في الغربة إن اختار الاغتراب, حيث أصبحت الغربة حلم الشباب في منطقتنا, فصرنا مثالا يضرب بين كل المناطق في الوطن, والشاب يمني نفسه بالثراء السريع والرفاهية والعمل المريح, ولن يستيقظ إلا بعد سنوات إثر تسديد مصاريف السفر والتأشيرات

وتسديد الضرائب والتجديدات, ثم تكلفة الزيارات لأهله وما يرافقها من هدايا وعطلة لبضعة أشهر بلا مرتب يضيع بها ماجناه خلال أعوام, وعلى كل حال لن أسمح لأي شخص من أسرتي أن يصبح أفضل مني إلا أن يقع تحت إمرتي ويعلن خضوعه لي بالكامل.

أكشن.. تصوير

كانت البلاد شبه مستقرة ظاهريا مع الكثيرمن المناوشات السياسية الجديدة بين شركاء الحرب الأخيرة, وكأن بلادنا مصابة بتعويذة سحرية ألا يدوم فيها تحالف سياسي وألا تستقر بها حكومة. فوضى صنعتها حمى التوريث التي يسعى لها الرئيس وخلافات مع آخرين يرون أنهم الأحق بالحكم, رغم انغماسهم بالفساد وتوحشهم السياسي والاقتصادي لكن غيرة الأصدقاء وطمع السلطة فوق كل شيء, فأصبح كل فريق يضم إليه قوى وشخصيات ويبعث بشخصيات أخرى من خانة الموت السياسي إلى الحياة أو يقومون بتفريخ كيانات وأحزاب وانشقاقات عنقودية, بلا أي هدف إلا المكايدات السياسية, بينما واقع الناس يسوء وتضمحل الطبقات لتتكوم كلها في طبقة الفقر الوحيدة إلا من كان حول السلطة أو المعارضة التي لم تكن تختلف عنها في شيء, إذ أن المعارضة تستغل

نفوذها في السلطة لتمويل معارضتها لها وشراء ذمم السياسيين والصحفيين وإنشاء صحف جديدة بأقلام هزيلة لا تملك أية كرامة, ولم يكن مع من هم مثلي سوى الوقوف مع السلطة والرئيس للمحافظة على علاقتنا ومصالحنا وأصدقائنا وبنفس الوقت المحافظة على حد معقول من العلاقة مع منهم في المعارضة, وإن كانوا هم أنفسهم في السلطة أو جلهم, وهكذا تستمر مصالحي واستثماراتي بلا انقطاع.

أصبحت متدينا ظاهريا وهدفي هو أن أقوم بتصفير المشاكل في قريتي, وأن أكسب أخي "عاقل" إلى صفي لكي أستعد للانتقام من أبناء أخي الأكبر لأنهم نجحوا دون رغبتي.. حيث قاموا بتزويج أنفسهم وأصبحوا ناجحين في أعمالهم, وقد كنت أود أن يطلبوا مني المساعدة والمال ولن أمنحهم بطبيعة الحال سوى الفتات أمام الناس. أصبحوا ناجحين ويشار إليهم بالبنان وهذا ما كان يخيفني ويثير حنقي, وبالتالي كنت أصب جام

غضبي على ولدي حتى وهو متزوج وأصبح أبا, فكنت أضربه أمام زوجته وأطرده من المنزل لفترات طويلة قد تصل لأشهر, وأحيانا أطرد زوجته معه مستبقيا معي أحفادي الذين أصبحوا كل حياتي وتعويضا لي عن فشلي الماثل بولدي, والأدهى أني أشتاق إلى "سامر" وأحبه كلما كان بعيدا عني ولم أعرف السبب أو أن السبب كان أمامي ولم أنتبه له فمنذ زيارتي للساحر والكثير من أحوالي تغيرت.

قمت بتحسين علاقتي مع أحد أبناء عمومتي وكنت أسميه "صلاح ابن نور", نسبة لأمه بعد أن رفض والده الاعتراف به إثر ولادته ثم هرب إلى الشطر الشمالي تاركا إياه في منزل جده, ليوصم باللقيط وقد كان يملك حقدا تجاه الجميع ونفسا خبيثة محبة للشر والإضرار بالآخرين, وحقدا مجتمعيا على الجميع, وكنت قد رفضت أن أزوجه ابنتي "جميلة" في وقت سابق بسبب وضعه الاجتماعي. أصبحت تتشكل لدي عصابة مكونة من أخي "فضل" و"صلاح اللقيط" وولدي "سامر" مع صديقه

"إبراهيم" وابن أختي "وليد" الذي كان والده صديق عمري وشريكي قبل أن يصبح متطرفا دينيا, فانقطع بيننا التواصل حتى كبر "وليد" الذي كان والده يعيره بأنه يشبهني شكلا وأفعالا فأحبني وسعى إلى التواصل معي, ليصبح من شلة ولدي التي تلتقي في استراحات اللهو والخمور والرقص, بالإضافة إلى "طلال" ولد أخي "عاقل" الذي أصبح جزءا من منظومتنا الشريرة رغم ما فعلته بوالده من شرور وما أطقلته عليه من إشاعات, رغم ما فعلته بوالده طوال عقود من الزمن, وهكذا استعنت بهم جميعهم للانتقام من أبناء أخي عن طريق التواصل معهم والدخول معهم في شراكات وأعمال تجارية عبر آخرين, ثم تلفيق التهم لهم فيتولى "صلاح اللقيط" مسؤولية نشر الشائعات والقصص الملفقة وسط أبناء الأسرة والقرية, معتمدا على تلك الحثالة نفسها من أبناء القرية الذين كانوا يبحثون عما يملأون به أوقات فراغهم ولهوهم, وفي الحقيقة لم يكن ذلك مؤثرا بشكل كبير فأسرة أخي كانت علاقتها بالقرية شبه منقطعة, ماعدا بعض الزيارات النادرة بينما تضررت أنا من هذه العلاقات

وحمى المشاكل واستطاع البعض إعادة "الديوث" مجددا, وكأنه ملتصق بي رغم أني استهلكت الكثير من الجهد والمال لإخفائه ثم جاءت الكارثة التي لم أكن مستعدا لي حيث فوجئت بأحد الأيام بسرقة أخي "فضل" لي, وقد كان هو من يدير أعمالي في مجال الذهب في الغربة ويدي اليمنى القذرة في كثير من الأعمال الحقيرة. قام بسحب رصيدنا البنكي الخاص بالعمل, ثم قطع كل الاتصالات فيما بيننا وبعد فترة طويلة ووساطات متعددة أرسلتها للقائه أخبرهم أنه يخدمني منذ سنوات طويلة, وأن هذا نصيبه وهو صاحب الفضل في تكوين ثروتي, وأن ما حصل عليه من المال الذي سرقه لا يعدو أن يكون فتاتا, ثروتي هذه التي جعلته رجلا يمتلك المال ويمارس كل نزواته بفضلي أنا, أنا الذي صنعت رجولته وبقي آمنا مطمئنا بعيدا عن شروري وغضبي رغم أنه أنجب أربعة صبية وبنتا, وأنا لا أحب من يملك أولادا أكثر مني من إخوتي, فناله الكثير من غضبي ولعناتي وكذلك إشاعاتي عنه ولم يعـــ..

ـ انتهى التصوير
ـ أنا لم أنته من كلامي

ـ لست بحاجة لباقي كلامك فأنا أعرفه, ستتحول من راوٍ إلى شخصية ضمن عمل متكامل يضم عشرات الشخصيات التي ذكرتها في حديثك عرضا
ـ ولماذا أتحدث عن غيري في إطار حديثي عن نفسي؟!, حديثي عنهم لأنهم معي فقط, ولا يمكنني أن أتحدث عما يفعلونه بعيدا عني.. فلا أعلم الغيب
ـ أنت بدأت الكلام عن نفسك بغرور شديد مانحا نفسك مرتبة نجل الشيطان وأنت تظن أنها مبعث للفخر, لهذا انتهي دورك
ـ اسمعني يا "ساهر" أنا بحاجة للحديث, لم يعد أحد يستمع إلي

كان "ساهر" نجل شقيق "الخنفس" الأكبر يقف أمامه بينما هو يجلس على كرسيه المتحرك بجسد هزيل وقد طالت لحيته البيضاء التي لم يعد يصبغها أو يحلقها وبشعره الأبيض الكث الذي أصبح خفيفا في مقدمة رأسه تبدو معها بشرة رأسه السمراء, هذا الذي كانوا يسمونه الخنفس لكثافة شعره أصبح اليوم أصلعا إلى جانب كونه وحيدا ممزقا ومتسولا.

استدار "ساهر" مبتعدا قبل أن يستدير مجددا وهو يصرخ في وجه "الخنفس" المقعد:

ــ ألم تكن تجمع حولك اللقطاء وأصحاب المصالح؟
ــ يا ولد أخي.. عليك أن تتجاوز عن هذا فأنا عمك وفي مقام والدك

ــ والدي؟! الذي كنت تسيء إليه وتشوه به وتسرقه طوال عمرك,ولم تكتفِ به حين نقلت شيطانيتك وعبثك إليّ وإلى إخوتي للإساءة بنا ومحاربتنا في أرزاقنا

ــ أنا مخطيء.. كنت مضطرا لذلك, كنت أسعى لتحسين صورتي, ولم يكن ذلك ليتسنى لي إلا بتشويه صورة الآخرين, تذكر أني كنت أمنحك مصروف الجامعة

ــ مصروف الجامعة, على من تكذب؟ ماكنت تمنحه لي لا يساوي حتى عُشر مصروفي, وكل ما أخذته منك طوال أربع سنوات لا يتعدى قيمة حذاء كنت أشتريه

ــ اغفر لي

ــ يطلب الغفران من يزل من غير قصد, أما أنت فكنت مستمرئا لعبة الشيطان بل كنت زوجة مطيعة له. يمارس معك كل مساوئه لتطلقها علينا, وها أنت اليوم مقعدا فقيرا وحيدا. نسيت أن الزمن يجري بك وستصبح مقعدا هرما, تخلت عنك زوجتك "ليلى" وابنتك "جميلة" بعد أن

طلقها زوجها "إبراهيم" وسرق كل ذهبها وأموالها بعد أن حملتاك مسؤولية كل ما يجري من مصائب

ـ "إبراهيم ابن علياء" القصيرة الخبيثة, كم كنت أحذر منه ولدي "سامر"!!.. ولدي من أخذ كل أموالي وبلغ عني الحكومة في الغربة لممارستي التجارة بصورة غير مشروعة لأني أجنبي

ـ ولدك الشاذ؟! هذا الذي كان يدير حملة التشويه بحقي

ـ أنت لم تصمت؟ نشرت موضوع شذوذه في كل مكان

ـ مازال الفيلم لم ينته, وقد أخذت منك مايكفي لصنع السيناريو وفضحكم في كل مكان أنت وكل أفراد عصابتك.. بل سأصنع أفلاما

ـ هذا الكلام لا يصح؟

ـ الجميع يعرف قصصك وجرائمك ويطلق عليك لقب "الديوث"

ـ أنت من أعدته للوجود

ـ لم أكن أنا من أوجده, كما أوجدت أنت لقب "صلاح اللقيط"

ـ "صلاح ابن نور" لقد انتحر بسبب أمراضه النفسية الفظيعة والتي

شوهت روحه وفكره وشكله.. كان يكره الجميع.. يكرهني أنا أيضا على رأس القائمة لكنه استخدمني للاستفادة من نفوذي وأفكاري

ــ انتحر لأنه اقترب منك. كل من يقترب منك سينتحر أو ستصيبه لعنة الموت أو السجن, ألم تنتبه إلى هذا؟ كل من استعنت بهم في حروبك القذرة أصابتهم هذه اللعنة

ــ لقد كان انتقامك قاسيا واستخدمت خبرتك في صنع الأفلام في فضحنا وجعلتنا خائفين مما ستنشره, حتى نشبت بيننا المشاكل والخلافات وأصبحنا لا نثق ببعضنا..

ــ كنت تظن بأني سأصمت مثل والدي الذي تحمل قذارتك لخمسين عاما, ومع هذا كل الذي فعلته هو التسريع بانتقام الزمن. أنت في الخامسة والسبعين من عمرك, كل الذي كنت أنتظره أن تظهر عليك آثار الزمن.. كما أنت الآن هرم مقعد مصاب بالسرطان.. فهل كنت تظنك أنك ستخلد؟!, أو أن قوتك ونفوذك وشرك ستبقى للأبد, ألم تكن تدري أن كل أفعالك وشرورك ستذوي مع جسمك

ـــ ..

ـــ منذ ذهابك إلى المشعوذ في "رداع" قديما وأمراضك النفسية تضاعفت

ـــ كل مشاكلي بدأت في طفولتي, لكن ضعفي الجنسي زادها

ـــ هذا يعني أنك أصبت بالعقم

ـــ نعم.. لكن ليس عقما كاملا

ـــ كلامك يعني أنك كنت ترى الشيطان والقرد في زيارات متكررة

أشار برأسه إشارة الموافقة, فقال له "ساهر" مستفسرا:

ـــ هل خطر ببالك مرة أنها قد تكون أوهاما برأسك أو سحرا فعله له أحدهم للسيطرة عليك وإيهامك

ـــ ليست أوهاما.. إني أراهم ومازلت أراهم.. رغم أن الشيطان اختفى ولم يعد يأتيني

نظر إلي بدهشة وهو يقول:

ــ ماذا تقصد بحديثك عن السيطرة.. هل تقصد أن زوجتي "ليلى سحرتني؟!

اكتفى "ساهر" بالصمت, ليواصل الخنفس كلامه باستعطاف ذليل:
ــ هل يمكن أن تزيد المبلغ الذي منحته لي مقابل هذا الفيلم؟
ــ الفيلم يحتاج إلى مصاريف كثيرة وما حصلت عليه يكفيك, وسيتأجل قليلا وسط أتون المشاكل والفوضى, المناطق الجنوبية حول "عدن" بالذات مشتعلة بعد تأسيس الحراك السلمي الجنوبي.. دعني أسألك!
ــ ماذا؟
ــ بحكم شخصيتك الأفعوانية والشيطانية, مع من ستقف لو كنت بكامل صحتك كالسابق؟!
ــ طالما أن هناك سلطة فلن أتخلى عنها, مصلحتي هي في السلطة, شعارات الجنوب لن تمنحني شيئا, لكن هذا لن يمنع من مجاملة الناس ببعض العبارات والجمل التي يودون سماعها في الجلسات الخاصة

وإطلاق بعض الأبواق في المجالس والمقايل يؤكدون للناس بأني مع الحراك قلبا وقالبا

ــ وإذا انهارت السلطة؟

ــ السلطة لن تزول, القليل منها يكفي, لكني سأبحث عن الجهة السياسية التي تحقق مصالحي, وفي هذه الحالة سأرى الرأي العام وأدرس ميوله, وطالما هو مع الحراك والناس كلها تؤيده في مساعيه المعلنة نحو استعادة الجنوب فسأكون معه

ــ ما أكثر أمثالك من المتلونين

ــ ستفاجأ إن علمت أن الشعب كله لا يحب الألوان الرمادية, ينزلون صورا ويرفعون صور آخرين ثم ينزلونها ويرفعون أخرى.. قد تكون نفس الصور التي أنزلوها سابقا

ــ ..

ــ لي رجاء وطلب أخيرين منك؟ أن تشتري لي كرسيا جديدا, فقد أصبحت مسنا مقعدا كما ترى ولا أستطيع تحريك هذا الكرسي بشكل سلس

ــ هذا الطلب؟

ــ نعم, والرجاء أن تتواصل مع ولدي "سامر" بطريقتك وتطلب منه أن يتواصل معي

ــ لقد حاولت التواصل معه من أجل الفيلم ومعرفة وجهة نظره لكنه منذ لجوئه إلى بريطانيا مع ولد أختك "وليد" كشاذين, وهو يتجاهل الرسائل

ــ اغفر لي

ــ لست إلها حتى أغفر لك, عليك أن تغفر لنفسك أولا عما اغترفته بحقها طوال سبعين عاما مليئة بالتناقض والكذب والمؤامرات والخداع, حتى الانسانة التي ساعدتك في أعمال الدعارة واستدرجتها لأعمالك القذرة قتلتها

ــ لم أقتل "أشجاني"

ــ أين ذهبت؟

ــ كم ستدفع لأحكي لك قصتها في صنعاء وما فعلناه هناك؟!.. لقد انضمت إلى أحد الأجهزة الأمنية المشكلة حديثا هناك برتبة كبيرة, والاستفادة من خبرتها في العلاقات الحمراء في استقصاء المعلومات وآرائهم بالدولة.. والكثير من القصص, فمن هي مثل "أشجان" وفي سنها وخبرته تصبح خبيرة في النساء واصطيادهن وتجنيدهن.. هاااه كم ستدفع؟!

ــ يا إلهي.. لا فائدة منك, حتى موتك لن يخلصنا من شرك ومن شر شيطانك مع القرد الذي يلاحقك.. وداعا.. لن تراني بعد اليوم إلا لتسجيل الجزء الثاني من لقائنا خصوصا حكايات "أشجان" وما عرفته من أسرار وحكايات في "عدن" و"صنعاء"

ــ أنت لست "ساهر" الشاب الوديع المسالم!!

كان "ساهر" على وشك الخروج فالتفت وهو يقول بلؤم:

ــ نعم.. لست "ساهر".. أنا الشيطان

ثم دوت ضحكة مجلجلة في أرجاء المكان, وعم صمت مخيف أبدي يرافقه صوت نباح مع فحيح غريب.

الفهرس

حمولة الشيطان _____ 5

سرير الشهوة _____ 35

يوم العبور _____ 79

نحو اللا عودة _____ 108

الديوث _____ 124

تسيعنياتون _____ 153

أكشن.. تصوير _____ 194